حدثنا عن البنات

فؤاد قنديل

427





قصص

حَدّثَنى عن البنات

قصص

فؤاد قنديل



سلسلة
أصوات أدبية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• حدثني عن البنات
• فؤاد قنديل
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2010م
160ص. 13,5 × 19,5 سم
• تصميم الغلاف:
د. خالد سرور
• المراجعة اللغوية: د. محمد السيد إسماعيل
محمود أبو عيشة
• رقم الإيداع: ١٠٥٦٠/ ٢٠١٠
• الترقيم الدولي: 978-977-704-655-8
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي: 116 شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947891 (داخلي: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

427

سلسلة شهرية تعنى بنشر إبداع أدباء مصر
في الشعر والقصة والرواية

حدثنى عن البنات

3

الإهـــداء

؟؟؟

؟؟؟

؟؟؟

؟؟؟

؟؟؟

؟؟؟

فؤاد قنديل

حدثنى عن البنات

أرجأت سؤالى، ومضيت أتأمله وهو يسوى شاربه الفضى المتهدل، ويدفس كنكنة القهوة فى جمر الموقد حيث كانت النار التى شاخت تمضغ القوالح بتلذذ.. قلت لجدى الذى أوشك على التسعين، وأنا أستشعر دفء الجلوس إليه.

- حدثنى عن البنات يا جدى.

توقعت أن تتغير فجأة ملامحه، لكن ابتسامة رقيقة أخذت تتسلل فى هدوء شديد وثقة إلى وجهه المتغضن، ولم يمنع الجلد المكرمش نور البسمة أن يشرق على وجهه كما أشرق فى أبهاء روحى.. قال وهو يتنهد:

- رياحين خلقن لنا.

- هذا كلام الشعراء.

قلب البن والسكر بملعقة عمرها يفوق عمره، ثم قال:

- زين للناس حب الشهوات من النساء.

جدتى رحلت منذ سنوات.. رحلت عام سقوطه من فوق الفرسة.. تشاءم جدا يوم سقط وقال: هذه إشارة..

يبدو أنه الآن يرى وجهها الطيب البشوش وملامحها المنمنمة الباسمة. انشغل بتجميع هشيم القوالح الحمراء حول كنكة القهوة التى تتأهب للغليان. تنهد وعادت يمناه إلى شاربه..

قال

- الله يرحمها

- جدتى؟

- ليس فى البلد غيرها

رفع رأسه وأطلق نظراته عبر النافذة التى رسمت مربعا من الضوء وكشفت سور النخيل البعيد.. زر عينيه كمن يحاول التحديق. كان أحد فروع التوتة يتراقص.. كنا فى الخارج منذ قليل نفترش الحرام الصوف المخطط وأسقطت النسائم الوديعة حبات التوت، التقط جدى حبتين ونفخ فيهما وقدمهما إلىّ قبل أن أطبق عليهما أسنانى، كانتا قد ذابتا وتقطرت حلاوتهما فى حلقى.

قدم جدى كفه المعروقة بالفنجان الأبيض المخطط رأسيا بالأزرق، وتتقوس للخارج حافته لتيسر للشفاه استقبال

القهوة. بلغت روحى أنفاس الدخان الذى يخرج من كل خلايا جدى كان الزمان يتنفس بيقين ومحبة تأملت عيون جدى الرمادية.

تمنيت أن يفرح عندما أقول له:

- أريد أن أتزوج.

قال ومازال في شروده يتأمل وجه جدتى:

- على بركة الله

سألته:

- كيف أختار؟

تمهل قليلا، ثم قال بعد أن عاد إليًّ بكامل وعيه:

- لاتجهد نفسك في الاختيار.. سيحدث وحده

- وما دورى؟

- وزع الله المزايا والعيوب على العباد بالعدل.

لحظة صمت ثم استطرد:

- ولا أحد كامل.

- يا جدى.

- في كل إنسان عيب واحد.. فقط تجنب المنبت السيئ.

- يا جدى.

مد لى يده بفنجان القهوة البيشة المزركش أبيض القلب.. صعدت الرائحة المميزة إلى أنفى، ومضت حثيثا إلى رأسى.. ظل شاردا يحدق فى جمر النار الأحمر الشفاف وعلى وجهه

آثار ابتسامة، ونبض ذكريات حبيبة تدغدغ روحه المحلقة.. أنا معه مغمور بالدفء والطمأنينة.. تشملنا عذوبة الصمت الجميل.

بعد قليل جاء أبى، قبّل يد جدى.. وجلس إلى جواره، عاد يقبل يده ورأسه.. مد له جدى فنجان القهوة.. قال أبى وهو يكاد يحتضن الفنجان ويتهلل له وجهه:

- من يد ما نعدمها.

أخذت وقتا طويلا حتى أقرر مصارحة جدى... أخيرا استجمعت بأسى وعزيمتى:

- يا جدى.. أبى يرفض زواجى ممن أحب.

رمقنى أبى مندهشا.. سألنى بعينيه المفتوحتين إلى أقصاهما عن سبب إشراك جدى فى الموضوع.. قال جدى وهو يعيد الكنكنة إلى النار:

- زوِّجه يا محمود ممن يحب.

حار أبى وتنهد، ثم قال:

- يا أبى.. إن.

- زوّجه يا ولد.

ظهرت حيرة أبى فى أصابعه المتوترة، ثم نطق على مضض:

- حاضر يا أبى.

لقد طرقت على الحديد وهو ساخن.. كانت فكرة جيدة إذ استعنت بالجد الرائع.. انحنيت بسرعة على يد جدى

فقبّلتها.. عاد يعبث بشاربه المتهدل.. وأبى يتململ.

قال جدى بعد أن أعاد الطاقية الوبر إلى الوراء وظهرت رأسه الجرداء:

- لماذا لاتوافق يا محمود؟!

حاول أبى أن يرتشف القهوة، لكن الفنجان اهتز وتساقطت على صدره بعض القطرات.. وجه إلىَّ نظرات عاتبة.. ربما أكثر من ذلك.. تعجله جدى ليرد عليه.. ألقى أبى عبارته القاسية بسرعة:

- والدها شريب ومنفلت اللسان.

أدركت على الفور أنى سأفقد الموافقة الملكية.. لقد وجه لى أبى ضربة قاصمة.

تحول جدى إلى النافذة الوحيدة فى القاعة حيث نور الصباح الندى، ثم نظر إلىَّ.. نكست رأسى.. سحب ورقة بفرة من علبته النحاسية الصدئة ذات القلب الأصفر البراق.. حشى الورقة بالتبغ وحاول أبى أن يشعلها له فرفض.. كان أبى قد أشعل الموقف.

أخذ جدى نفسا وعاد يتأمل النور القادم من النافذة، لمح غصنا من شجرة النبق يهتز تحت جسدى عصفورين يختطفان القبلات ويطيران فى دورة قصيرة نزقة.

عاد جدى يتطلع إلىَّ وقد بدا أنه لايجد الكلام، وأنه شاخ قليلا عما كان منذ قليل.. أحسست بغصة فى حلقى، وبأنى

على وشك البكاء.. بل ترقرق الدمع في عيني.. عندئذ، قال جدى:

- زوجّه يا محمود ممن يحب.

أعادني إلى الحياة بينما اختطف أبى فنجان القهوة فتجرعه دفعة واحدة، وانحنى على يد جدى فقبلها، وانطلق يقفز الدرجات الطينية إلى القاعة العليا.

بلغني صهيل حصان.. تسلل الابتسام من جديد إلى وجه جدى وتحول إلى النافذة.. كان الصهيل لفرسة جدى التى أصر عمي على امتلاكها بعد أن أسقطت جدى قبل عشر سنوات فى حادث أليم لاينساه أحد من أهل البلد..

كان متعجلا لحضور جنازة أحد أصدقائه القدامي في القرية المجاورة.

مضى يدعوها للإسراع وكانت كعادتها تستجيب دون أن ينبهها لذلك، إلى أن التقت فرسها الأثير.. توقفت تبادله النظرات الحالمة وتتلقى منه الوعود الناعمة.. لكزها جدى لتنطلق مرتين دون أن تحفل به. وعندما لكزها الثالثة توتر جسدها أخشى ما كان يخشاه أن تخرج الجنازة دونه. لكزها من جديد.. فجأة ارتفعت بمقدمتيها عاليا وألقته على الأرض.

تحطمت عظام الرجل ذى الثمانين.. احتوته غيبوبة. بعدها لم يستطع النهوض وقد شمله الذهول.. لم يقدر على تصور الحالة التى أصابت فرسته بالجنون.. وهو على الأرض

يأكله الألم ولا يكاد يحس بعظامه، رآها تضرب ساقها الخلفية اليسرى في اتجاه الفرس، بما يعني:

- امشِ الآن.. لقد تسببت في مشكلة.

انحنت عليه تلعقه وتعتذر، وما لبثت وهي تراه على هذا الوضع المتردى أن فاضت عيناها بدمعتين ساخنتين.. سقطتا على وجهه.. حاولت أن تساعده على النهوض فما استطاعت.. جاء المارة فأعانوه على الركوب.. توجهت به في هدوء وحرص إلى الطريق نحو القرية المجاورة ليلحق الجنازة.. أدرك أنه تقريبا تحطم.. أشار لها أن تعود، لن تحمله قدماه لعدة أيام إذا أراد الله له عمرا.. استشعر جدى طبول القدر.. غلبه التشاؤم وما لبثت جدتي أن رحلت.. طلب عمي من معاطى صاحب الفرس صديق فرستنا أن يبيعنا إياه. رفض عندئذ رأى عمي أن يأخذ الفرسة الحزينة، وقد رفضته شهورا وصبر عليها حتى لانت.. مع الأيام أصبحنا على يقين أن الفرسة غيرت قليلا من طباع جدى كما فعلت به جدتي، تزوجت ممن أحب.. وطلقتها بعد عام فقد كانت مشكلات عائلتها ثقيلة وعاصفة، زعزعت عش الحب.. وبعد أن اندملت جراحي، اشتقت إلى الدفء والقهوة.. فعدت إلى جدى ليحدثني عن البنات وقلوب البنات.

٢٠٠٣

أحلام مخصصة للانتقام

كل شيء يتهاوى بينما بعض الجدران والأبواب الخشبية تطقطق واللهب يعلو.

هرول الناس من كل صوب يبحثون عن سبيل لإنقاذ الضحايا المحاصرين بالنار، لابد أنكما أيها المتشردان الفاسقان قد انتهيتما، وما عاد لكما أثر، وتم حذفكما من سجلات البشر.

لا.. هذا ليس حلما كافيا لإطفاء نارى.. سأحلم من جديد.. سأحلم من أجل أن ألتقى بحلمى الحقيقى.. حلمى الذى يتطابق مع ما اقترفت غرائزك الدنيئة التى دهست فؤادك، وألقت للريح كل ما فيه من وفاء وحب وذكريات فريدة لا أظنها توفرت لزوجين وولدين هما أجمل ما فى

الوجود.. من أين لك كل هذا الغدر والحمق.. طعناتك القاسية العميقة تشقني من رأسي لقدمي.. تمزق جوارحي وخلاياي.

قبل أن أنام عليّ من جديد تذكر خيانتك وجحودك.. وأن أتذكر جيدا وبعمق قسوتك الأسطورية التي دفعتك لهجر بيت جميل.. رعيته وحدي بعمري وأعصابي ووقتي ومالي، اكتفيت منك بكلمات طيبة وحضن دافئ.. لم أكن أطلب غير هذا.. بل لم أطلب شيئا.. أعترف أن لمساتك الودودة كانت تصلني في الوقت المناسب، واعتبرتها - لسذاجتي - قمة المشاركة والعطاء، فهل كنت تكذب؟ ما أبشع أن يأخذ الكذب هذه الصورة! ما أفظع أن يتخذ العربيد الفاسق إهاب القديس.

يجب إذن أن تتلقى عقابك اللائق على كذب تعتق لمدة عشرين عاما.. لم تكن المشاعر والنظرات الحنون إلا ستارا للكذب والغدر.. يجب أن أحلم من جديد حلما يكفيني ويكافيء هجرك.. يجب أن تموت بالسم والذبح والخنق وبكل أشكال الموت.. اقتلاعك من الذاكرة لا يليق بفداحة جرمك.

عليّ أن أحشد روحي وأعماقي بفعلتك الوضيعة قبل أن أنام.. وأن أشحن قلبي بهمجيتك.. يجب أن يموت كل عضو فيك وحده.. ويبقى القلب إلى النهاية حتى أدق فيه

المسامير ، وأعلقه فوق سريرى الذى قلت فيه أجمل الكلمات. العرش. المطهر.. المعبد. بئر اللذة. خلاصة الدنيا.. الإسنس الرائع للوجود.. ياه.. ماذا تراه يكافئك من عقاب؟!.. ما الذى يمكن أن يشفى غليلى؟

كنت أستشعر منذ سنتين حضوره المتخاذل، وكان له فى البيت وجود وهمي.. أسئلته أصبحت سطحية تكشف عن شخص يمنع نفسه من التورط مع أسرته في تفاصيل حياتية.. شخص اختار أن يكون ضيفا.. ما الذى منعنى من إدراك حيله الرخيصة؟! الرجال ثعابين حقيقية حتى لو انتموا إلى أسرة راقية وتقنعوا بثقافة زاهية، وتمتعوا بقوة تلهم الثقة وتفجر الشعور بالأمان.

كيف قبل على نفسه أن يلمس جسدا آخر، وأن يرغم لسانه على النطق بكلمات وردية تجاه أخرى غير زوجته التى تعاهد معها فى كل ثانية على الوفاء أبدا وإلى ما بعد نهاية العمر، أى مادة كيميائية أو شيطانية غمس فيها قلبه كى يحوله عنى، وكان يعبدنى.. أنا التى صنعته وشكلته ودعمته بمالى.. فما كان يمكن أن تقوم له قائمة إلا بما ورثته عن والدى رحمة الله عليه.

كان يقول إننى الدنيا، وإنه لايفكر فى أى شىء إلا من خلالى وبواسطتى وبقوة الدفع التى أمنحه إياها.. يا ويلك منى يا من بنيت كل هذه العمارة الكاذبة.. وتوجهت بكل

أعصابك ومشاعرك إلى فتاة أخرى.. فهل طاوعتك قدماك أيها الكاذب الملعون لترحل عن حبك الأثير وامرأتك الجميلة التي يحسدك عليها زملاؤك والغرباء، وتمضي مسرعا إلى تلك الفتاة الصغيرة الزرقاء الصدئة؟.. أي عمى يصيب الرجال؟!.. لا.. لا تقل إني فشلت في الحفاظ على شجرة الحب مورقة، إنها فعلتك.. ولن تمر فعلتك بلا عقاب.. ولن أتركك تهنأ بعد هجرك العش الذى بنيته لك على مدى عشرين عاما.. أكان يسيرا عليك نزعها من روحك وهى كما قلت روحك؟ كيف أمكنك أن تتنكر لثمار العلاقة المقدسة ممثلة في «نسمة».. شابة يتهافت عليها الشباب وفي السنة الثانية بالجامعة.. عروس جميلة.. أخذت أجمل ما فيَّ.. ووليد بالثانوية.. حاول أن يتجنب شكلك وإن خطف جبهتك وشعرك، والتقط فمي وذقني وأنفي الصغير.. أخذ طولك وابتسامتك، وقد يكون لديه بعض ما كان لك من خفة ظل.. لقد حولت كل ما كان لنا إلى فتاتك الصفراء العجفاء.. خاطفة الرجال التي تحسب نفسك رجلها الأول.. اسأل وتحقق.. تقول إنها شاعرة وتنتمي لمدرسة المتشردين وتحضر الندوات وتتعاطى المخدرات والسجائر ولاتنام إلا مع الفجر كالخفافيش.. يا لحماقتك!.. هذه حقا هي الفتاة العصرية.. لن تهنأ بحريتك المزعومة.. لايجب أن أتخلى عن حقوقي وممتلكاتي، وأنت واحد منها، وإذا لم تكن لي فلن

تكون لها أو لغيرها، أقسم لك أن أنفذ وعيدى.

سأذهب إليك وأصفعك وأبصق عليك وأنت فى جحرك الجديد. وسوف أمزق صورك التى تحمل ابتسامتك الخادعة وعناقك المسموم، وأرسلها إليك شظايا لعلها تحرك فيك ساكنا أو ميتا من الإحساس.

لن يكفى هذا.. بل سأذهب إليك فى عملك وأحكى قصتك لزملائك ورؤسائك.. أستعرض معهم فقرات عملتك السوداء ليشهدوا بأنفسهم خداعك ونذالتك.. وأخيرا سوف أقتلك.. ولكن النساء لم يخترعن بعد عقابا يليق بأمثالك، الحياة ليس فيها برغم وحشية ما يجرى على الأرض ما يناسبك.. أنسيت أيها الفاسق أنى لم أبدد لحظة واحدة لم أغمرك فيها بالحب والسعادة؟ هل تذكر يوم التقيت المذيعة الشهيرة «آمال فهمى» وحدثتها عن سعادتى الزوجية وطلبت أن أستمع إلى مقطع من أغنية أم كلثوم «عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك» كنت أنا هذا الذليل أيها الجاحد.. متعتى كانت الذل لك، لكن ذلك كان فى الماضى وسوف نتبادل المواقع.. ستشهد على يدى معنى الذل والعجز، وسوف تندم أنك ولدت يوما.

ليتك تزورنى فى الأحلام بوجهك الجديد، مما يؤسف له أن زياراتك كلها مجرد استعادات لما فات.. استرجاع للحظات رائعة جمعتنا.. جلستنا منفردين.. رحلاتنا..

مناسباتنا وأعيادنا.. كم حسدنا الأهل والأصحاب!! لابد أنهم السبب. كان حبى لك كالبحر يشمه السائرون قبل رؤيته بعدة أميال.. والبحر كان عميقا وفائرا ومتوهجا.

هل كان حقا السبب الأقارب والأصحاب؟ لايهم.. أنت فتحت بوابة الأيام التعسة.. لم يبق لك من ذكرى لدىّ غير الأحلام التى تتكفل بتزويدى بالأفكار الجهنمية لأنسج منها عشا يضمك ملفوفا بأكفان النذالة.

رأيت فى حلم الأمس أني دعوتك لزيارتنا ورحبت بك وأنا قلبى يتمزق وآكل أسنانى، وبعد أن شربت الشاى المثلج الذى تحبه.. سرى فيك ما كان فيه، وتهاويت على سريرى الذى شهد هوانا المضطرم وعواطفنا الجياشة.. عندئذ خنقتك بالوسادة.. كتمت أنفاسك وهدأ خاطرى واستكملت نومى بأعصاب هادئة.

الأفضل منه الحلم الأول.. عندما ذهبت إليك.. وأشعلت فى بيتك النار بعد منتصف الليل، ووقفت أستمتع بمشهد النار والأخشاب تطقطق، وأنا أتحرق شوقا للنتيجة.

كنت أود لو أدخل محمية بأى مادة لأشهد اللهب وهو يأكل لحمك ويسيل جلدها، ويشوى وجهك ومعك الشاعرة اللعينة التى تكتب الشعر القبيح والمنحل.. عليها أن تموت لجريمتها.

بقيت واقفة فى الجانب المظلم من الشارع أستمع

لصوتيكما.. تصرخان وتستغيثان، ويتناهى إليَّ صوت ارتطامكما بالأشياء وسقوطكما متعثرين في غدركما الذى دبره ضمير أسود.. المشهد يسكننى بقوة ويملأنى.

تكرر الحلم ورأيته قبل أيام.. وقد ظهر في الأخير ولداى.. أصابنى الذعر.. خشيت أن تقع أنظارهما على.. فجأة اضطرب جسدى وانتفض.. صعد الدمع الحار إلى عينى.. تمنيت أن تمتلك الفرصة والقوة للخروج ولو تلحق بك بعض الحروق، سوف أعيش العمر خادمة لك.. ماذا جرى؟ أنا لا أستطيع حتى لو أردت، أن أنزع من قلبى ما نزعت.. سحقا لك.. ألا نخطر ببالك مرة أيها الخائن القاسي؟.. أهكذا تنسى أياما لم يعشها أحد غيرنا!.. هل تساوى الدنيا جميعها نظرة في عينى نسمة أو وليد؟ ما أروع الدنيا معهما!.. انس كما تشاء.. فنحن الحاضر والمستقبل، وأنت كنت يوما في الحياة.. سوف نحاول أن ننسى ذلك أيضا.. ونتذكر فقط أنك لم تخدعنا ولكن خدعت نفسك.. فهل نستطيع؟!

مهلا.. هناك طرقات على الباب.. أعرفها.. هل تراها له؟ شيء بداخلى يرتعش.. هل يمكن أن يكون هو؟.

ما أجمل أن..

٢٠٠٣

حب خريفى بطعم العواصف

الطبيب نفسه الذى فحصها فى عيادته أصابه الذهول، حتى إنه أعاد الكشف عدة مرات، ثم طلب منها الحضور إلى المستشفى. دعا زملاءه لفحصها فاستولى عليهم الذهول.. تبادلوا النظرات والصمت ثم الكلمات والنظريات وأقوال الكبار جهابذة الطب، وتذكروا أغرب النماذج التى قرأوا عنها فى المجلات الطبية العالمية.. تشككوا فى المستقر والمؤكد من المعارف الطبية.. كيف تحمل من كانت فى الثالثة والستين؟!!.. لم يحدث هذا مطلقا، ولم يسمع به أحد ربما على مدى قرون، وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام فبأى آلاء ربكما تكذبان.. لم تحمل سيدة تجاوزت الثامنة والأربعين وقد حملت فى حالات استثنائية من بلغت الخمسين.

دار الطبيب حول نفسه عدة مرات وتكلم مع روحه وبدا كمن أصابته لوثة، ثم نظر إلى العجوزين الطيبين الجالسين فى وداعة كل منهما قبالة الآخر، لا يدريان من الأمر شيئا، لكن حيرة الطبيب جعلت كلاً منهما يعتقد أن فى بطن الزوجة ورما.. لم يسبق أن قالت الزوجة شيئا عن الورم لزوجها ولا سبق للزوج أن فضفض بما يدور برأسه عن احتمال وجود ورم فى بطن الزوجة الغالية.. ولو تأكد من وجود ذلك العدو الشرس لن يستطيع بحال أن يخبرها عنه. كيف يتحمل أحدهما أن يؤذى مشاعر رفيق العمر بنبأ كهذا؟!

أخيرا لم يجد الطبيب مفرا من إبلاغهما.. قال:

- رجاء.. تقبلوا الأمر برضا كامل.. لازال بالإمكان حدوث المعجزات.

فى صوت واحد ودون أن تظهر على وجهيهما أية علامة من علامات الفزع، قالا بحيادية غريبة زادت من رعب الطبيب وإشفاقه:

- تفضل.. نحن نسمعك.

عاد الطبيب يقول:

- قد يبدو الموضوع غريبا لكنه ربما يكون مصدرا للفرح وأنتما لاشك مؤمنان بالله.

- لو سمحت يا دكتور.. تفضل أبلغنا بما تريد بدون مقدمات

قال الزوج العجوز

لم يبد على الطبيب أنه سمع.. قال:

- أحاول منع تأثير المفاجأة.. بصراحة.. ياسيدتى.. أنت حامل

الدهشة والذهول لم يصيبا الزوجة.. فقط سقطت من طولها وابتلعتها الغيبوبة.. وأوشك أن يحدث لزوجها ما حدث لها.. ظل متماسكا وإن كان قد فقد السمع والبصر والإحساس لعدة دقائق.. ثم جلس حتى يتمكن من استعادة ما سمع. بعد ذلك اندهش وظل مندهشا غير قادر على النطق، ليطلب إعادة ما قالوه ويستعد بالتنبه جيدا.

العم برهام الذى بلغ السبعين وتراجعت إلى حد كبير قدرته الجنسية دون أن يحفل بذلك، كان يشعر فى السنوات الأخيرة أن حبه لزوجته وحبها له والأحضان الدافئة المحملة بعبق الأيام والليالى المشتركة، ورائحة العشرة والأنفاس التى تتبادلها رئتاهما تحقق لهما اللذة التى لاتعادلها لذة، وتشبه كثيرا سعادة العصفور الذى يتنقل فى يسر من غصن إلى غصن.

لم يمنع هذا من أن يجريا بعض التجارب الجنسية الحية دون ترتيب أو مواعيد ثابتة، وفى الأغلب لايحالفهما التوفيق، مرج البحرين يلتقيان بينما برزخ لايبغيان.. يبتسمان بعدها ويتعانقان دون أن يترسب الأسى فى قاع

روحيهما، وربما غمرهما الرضا إذ يدهشان لهذا الحب الذى يزداد عمق آباره وتمتد فروع شجرته لتصبح الدنيا كلها حبهما.

من أجلها فقط كان عم برهام يحاول أن يوهم نفسه وهو فى الفراش أن زوجته إحدى نجمات السينما الفاتنات كى يستثير أعصابه، رافضا نصيحة صديقه الطبيب باستخدام حبات منشطة، وكان فى السر ومن باب الفضول قد جرب واحدة لكن الاستنفار لم يكن كافيا، فأيقن أن الأوان قد فات، وأن ملامسة الجسدين المعروقين تكفى كى يستقطرا كل معانى الحب والمتعة خاصة إذا تذكرا سنوات الشباب الماجنة.

لاتنسى مريم كلامه الدافئ الذى يروى عروقها الجافة.. دائما يقول:

- الدنيا كالماء الذى تغرفينه بيديك، ثم يتسرب من بين الأصابع وتبقى منه الذكريات.. كل ما فى الدنيا يتحول إلى ذكريات هى المتعة الحقيقية.

ظل الزوجان يومين لايتحدثان، لكنهما يتبادلان النظرات ويبتسمان.. يجلسان جنبا إلى جنب فى الشرفة الفسيحة، يدا على يد وقلبا على قلب، يتأملان الأفق والمشاهد العابرة ويفكران فى جمال الكون الذى يحدقان فيه بعيون جديدة.

هذه الكرة البرتقالية الكبيرة التى فقدت لهيبها تطل فى عيونهما ساعة الغروب وتلوح لهما بأشعتها الواهنة قبل أن

تسقط وراء المدى البعيد.. هذه السماء الصافية التى تربت رأسيهما وتمسد جسديهما بحنان وفى عينيها حب يميل إلى الزرقة.

كل شيء يمضى كعادته بانتظام ودون كلام. الفطور الخفيف في موعده يتعاونان في حمله إلى المائدة وكذلك الغداء المتأخر ومثلهما الشاى الذى يحين مع الغروب.

ظلا يتبادلان النظرات ويتلامسان دون قصد أو بقصد ويبتسمان فى دعة وعذوبة وقبل النوم يتعانقان طويلا ويتلاثمان، ولم يخف عليهما أن العناق اختلف والقبلات. لكل منهما طعم جديد. القليل جدا منهما يكفى ليطير القلب فى فضاءات الكون ويزقزق ويدور حول القلب الآخر المعتق بالشوق.. يتراقص القلبان ويطيران، ثم يمضيان معا نحو موضعيهما من الصدرين.. سرعان ما تنغلق الجفون على الأحلام الجميلة والغد المبتسم.

بعد يومين، وفى جلسة الشرفة.. نطقا.. أخيرا نطقا فى وقت واحد، بل فى ثانية واحدة.. لفظا معا لفظًا واحدا مندهشا مثلهما:

- معقول؟!

تنهدا من الأعماق. برقت الفرحة فى العيون، وتعلقت بالأهداب واستقرت على الشفاه. أمسك عم برهام بيد مريم الحالمة وعاد يقول معها فى نفس واحد:

- معقول ! !

دنت منه ووضعت رأسها على صدره.. تأملا الأفق الذى كان يتجمل لهما.. ساور الرجل خاطر اهتز له.. هل يمكن أن يكون ذلك مجرد حلم؟ ألا يكون شوقهما إلى الأبناء الغائبين المشغولين هو الذى حرك هذا الحلم أو صنعه؟.. فى الوقت ذاته راود مريم خاطر ارتعدت له.. ألا نكون قد متنا ونحن الآن في العالم الآخر؟.. كيف يمكن التأكد من ذلك؟..

قال كل منهما فى نفسه:

- لابد أنها الشيخوخة.. ذلك العالم الهلامى فاقد الجاذبية الذى يمهد البشر للانتقال إلى حياة أخرى.. لذلك تنحل مع الدنيا كل الروابط.. إنها المنطقة الوسطى بين حياتين.. كان برهام قد قال لها يوما سنصل إلى مرحلة الحب المائل للرمادى.. حمدا لك يارب على كل حال.

ضمها إليه بلطف وتنهدا معا ليخرجا من الأعماق أشباح الخواطر المعربدة. جلسا طويلا فى الشرفة وقد أيقنا أخيرا أن ما بلغهما وأقسم عليه الأطباء المذهولون ليس حلما ولا ارتحالا إلى العالم الآخر، وإنما هو آية من آيات الله فى زمن خلا من الآيات. لقد فازا بأكبر يانصيب فى الدنيا.. ما أعظم ما ناله الناس قبلهما ! ! وما أعظم ما سوف ينالانه إذا تم كل شيء على الوجه المأمول.. !

مرت شهور كافية، تنصت خلالها العجوزان طويلا وكثيرا للجنين وتحدثا إليه.. سألاه أسئلة كثيرة عن أحواله.. وما كان يملك من الإجابة إلا أن ينقر نقرة أو يرفس رفسة.

كانا قد اتفقا على ألا يغيب برهام عن زوجته لحظة من ليل أو نهار بحيث يتحركان معا صوب أى اتجاه.. يأكلان معا ويشربان معا وينامان معا ويحلمان ويفكران فى كل شيء معا.. يغمضان العيون معا ويستيقظان معا. يدخلان الحمام معا ويستحمان معا، وإذا تأهبا لاستقبال ضيف أعدا الطعام ورتباه على المناضد معا.. ينزلان إلى الشارع معا ويشتريان الخضر والفاكهة معا ويشربان عصير التمر هندى معا.. يرفعان الكوبين الكبيرين فى الوقت ذاته ويهبطان بهما معا وينتهيان من العصير بالضبط معا.. وكانا يقرآن القرآن معا.. رب المشرقين ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان.

لما جاءها المخاض كان يمسك بها.. لما زعقت كانت بين أحضانه. لما بدأ الطلق واهنا ثم اشتد وعصف كان إلى جوارها يدعو الله ويشد من أزرها دون أن يفلح فى حبس دموعه.. أسرع يعاونها فى خلع طقم أسنانها لأنه يتخبط فى فمها ويزعجها ويدق على رأسها بمطرقته الثقيلة.

زعقت وتوترت ودفعت بكل أعصابها ما يقبع فى روحها الذى كانت أحيانا لا تحس به حتى لتعتقد أنه كاذب، وأحيانا يقبض على صدرها.. ها هو أخيرا يرى الحياة.. قطعة حمراء

من اللحم فى شكل إنسان رائع يصرخ وينبض.. له رأس كبير أصلع ووجه شاهق البياض مثل «عدو الشمس» وفم واسع وعينان مفتوحتان بلا أهداب.. يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان.

تهاوت الوالدة العجوز الغارقة فى العرق والوهن، وهى أقرب للموت منها إلى الحياة بعد كفاحها التاريخى المقدس لإخراج المولود من قمرته محكمة الإغلاق.. القمرة التى شكلت الآمال الأسطورية للوالدين اللذين تجاوزا بكل المقاييس عمر الإنجاب الافتراضى على الأقل بالنسبة للزوجةالتى قاربت على حضور زفاف حفيدتها.. ها هما الآن يعيشان على ذرى المشاعر الإنسانية فى أبهى تجلياتها.

همد تماما الجسد المنهك وانخفضت كثيرا هضابه، وتضاءل البالون الكبير وغلب الوجه شحوب غريب. أسرع الأطباء يفحصون الكيان شبه الميت الذى لا تبدو له على الأجهزة أية علامات، ومع ذلك تأكدوا أنها بخير بفضل فتات النبض البطىء.

أخذوا المولود إلى سرير الرعاية، وبقى العجوز إلى جوارها ممسكا بيدها ونظراته برغم الدموع لاتفارقها.. كان يدرك أنه يمدها عبر يده بخيط رفيع جدا من الحياة.. طالت الغيبوبة لكنهم طمأنوه بأنه نوم وراحة وليس غيبوبة مرضية بعد ماراثون طويل وثقيل.. أسند رأسه على طرف السرير

وعيناه عليها وعلى أجهزة القلب وخراطيم المحاليل الغذائية.

حضر بعض الأولاد للاطمئنان على أمهم التى كتبت عنها الصحافة وأجريت معها الحوارات قبل الولادة، وسألوا كثيرا عن إمكانية الحوار معها بعد أن تفيق.. قالت أكبر الأحفاد وهى فى دهشة وسخرية:

- هل قطعة اللحم هذه ستكون عمى!!

ضحك الأحفاد الصغار وتنفس آباؤهم فى أسى.. أحد أبناء الشيخين ضرب كفا بكف وقال فى صوت خفيض:

- كبر الآباء وخرفوا.. كان يجب الحجر عليهما منذ سنوات، أو نقلهما إلى دار المسنين!!

دفعه أخوه الأكبر وهو يقول: عيب عليك.. بابا أكيد سمعك.

فجأة فى الفجر الثالث استيقظت تتطلع حولها فى إعياء.. أطلت فى عينى زوجها وابتسمت. ابتسم لها من أعماقه التائهة، ثم هبت كمن تذكرت تطلب وليدها. جاؤوها به.. أبقته إلى جوارها.. تأملاه معا ثم شرعت فى التسلل حبات الدموع.. تلتها شهقات الجسد المغمور مع الروح فى بحيرات السعادة.

فى اليوم التالى سألت العجوز عن السر فى الظلام الدامس الذى يسود المكان.. إذا كانت الكهرباء مقطوعة فليفتحوا النوافذ ويزيحوا الستائر السوداء.. فزع الزوج فقد كانت

الغرفة تسبح في الضوء الباهر.. ظل الظلام دامسا في عيني العجوز التي ظلت مفزعة تمسك بوليدها دون أن تبكي. مضت تقبل كل سنتيمتر في جسده وتعود من جديد لتمر عليه كله، متوقفة عند رأسه وقدميه كأنها تستنطق أعضاءه أو تتحدث إليه وتناجيه بنفحة من الماضي وومضة أمل عن المستقبل.

لم تكن تعيسة بل كانت تشكر الله لأنه أتاح لها أن ترى وليدها وتعرفه بشكل دقيق وتفحصه جيدا قبل أن تفقد بصرها وإن كانت لاتزال تراه بقلبها أغلى جوهرة في العالم.

خشيت ألا يدر ثديها لبنا، لكن الطفل مضى يمص الثدي ويعضه حتى فاض عليه وأطعمه إلى أن شبع.. شعرت أنها تكاد تطير.. بل تطير فعلا.. إنها قادرة على أن تمضي في أنحاء الشقة بسلاسة، وفي المطبخ تعثر على كل شيء دون معاونة، وتشعل الغاز وتطهو الطعام. ويساعدها الزوج قليلا برغبته وليس عن عجزها..

كثيرا ما طلب منها أن ترتاح وتلتفت للفتى الجميل وسوف يقوم هو بكل ما تحتاج إليه، لكنها اعترفت له إنها تحس بالعافية، وأنها أقوى كثيرا مما كانت عليه قبل الوضع، بل وقبل الحمل.. لقد عادت عشر سنوات على الأقل إلى الوراء.

قال عم برهام لها: عندما يكبر قليلا سيلبس مثل ما ألبس ونمشي معا ويعرفنا أهل الحي بسهولة. وفي البيت

سيكون مثلي تماما.. ما رأيك يا أم نبيل؟

اتفقا من أول محاولة على أن يكون اسمه «نبيل».. نطقا اسمه معا عندما تذكرا وليدهما الأول نبيل الذى مات فى سن الثالثة

تبتسم مريم وتهز رأسها قائلة للصغير:

- موافق يا حبيبى على كلام بابا؟

بعد عدة أشهر من وصول الفتى الرائع فوجئت بوفاة زوجها عم برهام.. أدهشها أنه لم يستيقظ فى الصباح الباكر كما عودها، فنادته وهزته، لكنه كان قد لبى الدعوة ورحل في الموعد المحدد.. كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، فبأى آلاء ربكما تكذبان.. شعرت بالصدمة الثقيلة. لكنها اكتفت بالبكاء الصامت ومعانقة الوليد الذى لم يكف عن الضحك واللعب وضرب الهواء بيديه ورجليه.

رفضت كل العروض التى ألح فى تقديمها الأبناء والأقارب للانتقال إلى بيوتهم والعيش معهم. أكدت أنها قادرة تماما - رغم كف بصرها - أن توفر كل ما يلزمها والطفل، كما كانت فى حياة زوجها.. مضت منذ ذلك اليوم تتحدث إلى صغيرها عن حياتها الطويلة منذ الطفولة إلى رحيل برهام الطيب.. قالت له:

- أبوك كان روحى وأصبحت أنت روحى من بعده.

عندما ينام الوليد - مركز الكون فى نظرها - تسارع

باستحضار طيف زوجها.. تتذكر بدقة أنه عاملها طوال عمره بمنتهى الرقة والحنان، وكان قريبا من قلبها ويفكر فيما تريد، ويقطف لها ما تتمنى من الثمر قبل أن تطلبه، ويسعدها أن تتذكر كلامه الحكيم، وخاصة عندما يقول: الحياة ليست أكثر من مجرد ذكريات، وعلينا أن نتصرف دائما على أننا نسجل من أفعالنا ذكريات جميلة، تسعدنا في الدنيا وتؤنسنا في الآخرة.

يبهجها جدا سرعة نمو الرضيع وحركته الدائبة، وكان مدعاة لبهجة أكبر حرصه على أن يرافقها أنى ذهبت سواء إلى السوق أو إلى البنك لصرف المعاش وإلى المقبرة لقراءة الفاتحة، ويصطحبها إلى النادى ويصف لها ما يجرى حتى أصبح الزوج والأخ والابن والصديق.. بات واضحا أن قلبها لايستطيع أن يتحمل كل هذا الكم من الفرح، كما كان لسانها عاجزا عن الوفاء بحق الرب من الحمد وهى ترى الصغير يشب بحماس ويتجه إلى اليفاعة بثقة، ولم تكن الدنيا تتسع لسعادتها عندما يأتى ترتيبه الأول كل سنة فى كل السنوات حتى الجامعة.

- ستتخرج يا روح الروح هذا العام وقد عثرت بالفعل على أجمل فتيات العائلة لأخطبها لك بعد ظهور النتيجة مباشرة.

- يا أمى أنا أفكر فى السفر إلى الخارج.

أسرعت تقاطعه وهى تحبس دموعها خوفا عليه:

- أرجوك يا نبيل.. لم أكن أريد أن أكشف لك مخاوفى من حلم رأيته.. سوف أموت بعد أن تتزوج.. لابد أن أراك فى حفل زفافك

- يا أمى

انفرطت في البكاء فانحنى يقبل يدها وأسرع يجفف دمعها وهو يقول:

- لن أعارضك ما حييت

تعانقا وتنفست الأم بملء رئتيها وجسمها كله.. شكرت الرب على فضله الذى لاتحصيه كل دفاتر الأرض.

بعد الامتحان مباشرة فوجئت بالخبر.. ولدها الرائع وأغلى جوهرة فى الوجود مزقت جسده سيارة الموت الطائشة.. كان يقودها ولد فى السادسة عشرة.. سيارة ضخمة وفخمة قذفته نحو خمسين مترا وصعد بارتفاع يساوى الشرفات التى رآه من فيها وأغشى عليهم.

لم تبك ولم تحزن.. لم تسمع ولم تنطق.. فمها مفتوح على الدوام، وفي خيالها زوجها المبتسم ويداه ممدودتان إليهما بشوق وفرح.. يداه ممدودتان، فبأى آلا ربكما تكذبان، ولمن خاف مقام ربه جنتان، فبأى آلاء ربكما تكذبان.

- كان أبوك يقول: إن الدنيا كالماء الذى تغترفه بيديك

وسوف يفر من أصابعك وتبقى الذكريات.. الدنيا مجرد ذكريات.

دخلت فنامت وكان ابنها الأكبر قد أصر على أن يبقى معها ولحقت به زوجته.. وفي صباح اليوم التالي.. أعد ابنها القهوة التي تحبها.. دخل عليها يدعوها باسم الصباح الجميل أن تصحو وتشرب قهوتها.. لم ترض أن تشربها ولا أن ترد عليه ولا أن تستيقظ.. وبقيت الذكريات القديمة.. كانت الصدمة كبيرة للغاية على الأبناء وصدمة الأصغر مفلوت اللسان أكبر.. تذكروا جميعا أن الوالدين كانا مختلفين وكانا رائعين.. حاولوا أن يغلقوا الباب على ذكريات حب الخريف وعواصفه.

٢٠٠٣

حرث النار

بذور اللهب الصغيرة تكبر فتصير ورودا من وهج منير أبيض مشوب بحمرة، وتستطيل فتغدو ثعابين بأجنحة تطير، وتتحول - بنهم واجتياح - إلى شياطين نارية ترتدى العباءات المشتعلة.. أسنان النار تطقطق وهى تقضم ما تأكله.

تمضغ فى عجلة وتبتلع وتكبر وتمتد وتصبح نهرا من اللهب الهائج والجامح.. أدهش لهذه العجلة، كأن الموعد قد أزف ولابد أن تنتهى من المهمة المقدسة حتى لاتلقى عقابا ثقيلا وباطشا.

تعلو النار وتفرح.. تعدو وتطقطق.. تلتهم كل ما تلقاه. الأحراش وعيدان الغاب الكثيفة. عجلات الكاوتش.

الورق وأوعية البلاستيك. جثث الكلاب والقطط. الدجاج والفئران والعرس. بقايا ضفادع متحللة فى مستنقع قديم. أجهزة معطلة. أخشاب وقلوب محطمة. خلاص أجنة مولودة حديثا.. ألعاب اطفال سئموا منها. ضمائر متعفنة مع لفات البامبرز ودلاء البويات نصف المملوءة وماء الوجوه المراق، عصائر الخجل المتخثر. زيوت سيارات ألقاها أصحابها إلى هذا المقلب عبر سور متهدم لبقعة كانت حلما لمشروع لم يتم.

منذ سكنت أمام المشروع الجثة، قبل خمس عشرة سنة وهو يجابهني كلما خرجت إلى الشرفة.. أشعر بالخزى والاستياء.. مستشفى كبير لعلاج الأمراض المتوطنة كان يجب أن يقام هنا.. وضع أساسه الرئيس، لكن خلافا بين الحكومة والمقاول أوقف العمل.. أسرعت النار تسقط اللافتة وتأكل حروفها التى تتضمن تفاصيل المشروع. خمس عشرة سنة!!

المشهد رائع.. الصعود المدوى والشامخ للنار المهيمنة.. خرج العشرات من بيوتهم ليباركوا أياديها البيضاء التى تعتزم أن تسوى كل شىء بالأرض وترحمنا من تلال القبح التعسة.. فكرت فى تاريخ النار المشرق والنبيل.. لقد صنعت الحياة حتى حين كانت تهدم، وعلمت الإنسان وقادت التعمير والصناعة.

لفتت انتباهي حركة غريبة.. تأملت جيدا ما يجرى.. ثمة أولاد يخرجون من ألسنة اللهب وهم يهللون.. ماذا كانوا يفعلون في الأرض الخربة؟ ولماذا ظلوا بين النيران؟ تزحف عليهم وتشملهم عباءتها المتعالية. صهدها يبلغنى وأنا بالطابق التاسع، تزداد جسارته وتواصل الالتهام.

كميات هائلة من الدخان الأسود غطت العمارات وبلغت السماوات. بقيت واقفا ومستمتعا، أغرس المشهد في أعماقى. كنت في الجهة البحرية بالنسبة لها. كل العمارات الواقفة جنوبها أغلقت النوافذ بإحكام، وأسرعت كل من لها غسيل برفعه من الشرفات.

تدريجيا هبطت قليلا ألسنة النار الساطعة. تناقصت وتمزقت.. غدت جزرا، ثم تقلصت وتقلصت. اختفت تقريبا بالونة الدخان الضخمة التى شملت الحى كله.

ها هى الأرض الجديدة سوداء من تفحم الأخشاب والفضلات. الرؤية فسيحة والمدى متسع.. لم تبق إلا مصادر محدودة للدخان. رجال الإطفاء يصبون عليها من الخراطيم دون أن يؤثر ذلك في كبح روائح الاحتراق النفاذة.

الكعكعة الضخمة لجمهور تلهف لمشاهدة الأحداث المسلية شرعت في التفكك.. انتهت اللعبة وتهيأ النظارة لمغادرة المسرح. يفيق المكان ويتنفس.. تتفتح قيعان أعماقى المنقبضة.

أتيحت الفرصة لبعض النسمات الخالية من رائحة القمامة المحروقة كي تمس وجهي بمودة وحنان.

تمكنت من التنفس في يسر.. تأملت المدى المفتوح والمباني والأضواء. ثمة حوار عميق يتردد بين الكائنات بعد أن تخلصت مما يكبلها. شعرت أني مثلها مستعد للحوار، وأن لديَّ ما يتعين قوله. ثقب ضئيل يتسرب منه الضوء، رفيع نافذ يمضي بثقة وسط الظلمة المحدقة. ثقب في روحي. أود الآن أن أمسك بالقلم وأنثر به كلمات متحفزة. تتقدم في طابور بلا نهاية بعض العبارات المتلهفة شوقا للعناق المتجمع في نسق أثير.

٢٠٠٣

جموح قلب منسى

قفز فى الهواء وبكل القوة المتبقية فى الجسد والقلب والحماس.. نفخ فى صفارته وقذف ذراعه إشارة الانطلاق.. أسرعت السيارات تتحرر من لحظات الوقوف المتوتر.. زمجرت المحركات.. صرخت العجلات وكاد الشرار يتفجر من دورانها المفاجئ.

ظل شاهين برغم سنينه الستين يشير لنهر السيارات كى يواصل تدفقه بالاندفاع المحموم، حتى يفرغ الطريق والطرق التى تصب فيه.. مضى يلف كالمروحة.. لايحس بأى شىء فى الدنيا إلا هذه السيارات التى تتكدس أمامه فى ثوان وهو يقف على مفترق طرق وعليه أن يعدل بينها ويفرغها واحدة بعد الأخرى.

لم تلحق هذه الإشارة تكنولوجيا العصر، وشاهين لايدرى شيئا عما يجرى فى البلاد.

ليست لديه فرصة كي يستمع إلى الإذاعة أو يشاهد برامج التليفزيون.. كل الذى يبلغه جمل ناقصة من هنا ومن هناك.. هو لايعرف حقيقة كواليس الانتخابات وما قيل عن أنها تمت من خلال رغبات بعض الكبار النافذين.. هو لايعرف أسماء المرشحين في دائرته، ولايفهم سببا لارتفاع سعر الدولار، بل هو لايعرف انه ارتفع أو انخفض، ولايعرف ما يجرى فى الشارع الذى يقيم فيه.. هو لم يسمع بالأزمة المالية الدولية، ولكنه لحسن الحظ سمع عن أنفلونزا الطيور وبلغه أن أنفلونزا أخرى أعقبتها هى أنفلونزا الخنازير.. حتى مشكلة فلسطين والاعتداء الوحشى الذى شنه الإسرائيليون مؤخرا على أهلها، لم يشعر به إلا عندما مرت به مظاهرة ضخمة، تندد بالمجرمين الطغاة وتطالب بالانتقام وسحب السفير المصرى وطرد الصهيونى.

غضب جدا بسبب ما حدث، وتمنى لو كانت الصحة والسن تسمحان له بالتطوع فى الجهاد ضد مغتصبى الأرض، لكن الحقيقة أنه كان قلقا أكثر وبحدة على الشوارع التى امتلأت بالسيارات، وانعدمت فيها الحركة وتوقفت فيها الحياة، ويظل فى حالة دهشة بسبب ما قيل من أن عدد السيارات بالقاهرة قليل جدا.

في صباح اليوم فقط علم من صبحي الذى تصادف أن ركب معه نفس الباص أن هناك مليارات ينهبها كل يوم من البنوك والشركات من يسمون رجال أعمال. دهش جدا لأنه عندما ذهب مرة لصرف شيك بأحد عشر جنيها رفضوا الصرف مرة بسبب اختلاف المبلغ بالحروف عن المبلغ بالأرقام، ومرة بسبب خطأ في التوقيع ومرة بسبب انتهاء التاريخ.. وبعد أن تذكر هذه الحكاية نسى الموضوع كله وأخذ يفكر في الشوارع والسيارات.

كان معروفا بأدائه بين كل عساكر المرور، فهو أسبقهم فى الحضور وآخرهم فى الانصراف، ويظل يدور من لحظة وصوله، كأنه فى حلقة ذكر، لايقطعها ولو لحظات ليتناول «ساندوتش» أو كوب شاي أو لتدخين سيجارة.

فى الفترة الأخيرة أصبح عاجزا عن تذكر اسم الضابط الذى قال إن أم شاهين حملت فيه بأمر من مدير الأمن، ونذرته للمرور.. الله وحده يعلم كيف يعمل ويستمر فى العمل بانضباط وحماس يوميا لمدة اثنتى عشرة ساعة، يعود بعدها لبيته مهدودا، فيأكل ما يقدم إليه ربما دون أن يعرف ماذا يأكل، ثم يتهاوى في موضعه الجسد الطويل النحيل، وسرعان ما يعلو غطيطه لعدة ساعات.. ينتظم بعدها تنفسه في شهيق يرد عليه زفير، حيث تعمل بسائم رئتيه فى انسجام نسبي.

إنه شاهين مايسترو السيارات، يعرفه الجميع.. آلة مرورية رهيبة.. يضبط إيقاع الكائنات الحديدية، يعلو ويهبط ويصفر ويشير بالتوقف أو بالانطلاق.. يقف في وجه السيارات المنطلقة في جنون إذا أراد أن يضع حدا لاندفاعها، ويعطى الحق لسيارات الطريق الآخر والمشاه ويغوص بين صفوف السيارات باحثا عن الاختناق..

يلتفت فجأة وهو يسحب دفتر المخالفات من جيب مؤخرته بيد، والقلم من جيب في أعلى صدره باليد الأخرى، يسجل رقم سيارة خانت عهد الصفوف الواقفة أو سيارة تجاوزت السرعة المقررة أو زاد ارتفاع حمولتها عن المسموح به..

وجه زوجته لايطل عليه ولا وجوه أولاده، ولو حتى ثانية، مرة وحيدة في هذا العمر.. يوم أبلغوه من البلد أن والده يفارق.. تنهد وسكن لحظات ثم سقطت دمعتان ورأى والده في تلك الحالة يمضي مع المشاه.. تعجب لدقيقة.. كيف أبلغوه أنه رحل وهاهو يمشي في الزحام؟ ولكن.. كيف حضر إلى القاهرة؟.. أغمض عينيه ثم أسرع يلوم نفسه لانشغاله عن الإشارة.

كانت سعادته يختزلها بعض السائقين بتحية مسرعة مثلهم:

- صباح الفل يا عم شاهين.

- ازيك يا راجل يا عجوز.

- ربنا يديك الصحة يا شاه.

وكان أكثر سعادة بمن يقول له باسما:

- انت لسه عايش يا شاه.

أذنه لايمكن أن تنسى أنها سمعت صوت قبلة أرسلتها إليه في الفضاء بنت صغيرة جميلة، عارية الذراعين والكتفين ولايدرى شيئا عن الباقى، تقود سيارة بترولى ميتالك رائعة.. أسعدته القبلة لأنها فى الأصل موجهة إليه حتى لو استأثر بها الهواء لنفسه.. زغردت روحه. قبلة هوائية من بنت صغيرة. مضى الزمان دون أن يلتفت للدنيا.. الدنيا ليست إلا إشارات وسيارات وضباط ومخالفات.

فجأة رآها ولاتسل كيف رآها.. أقرب إلى المستحيل أن يرى ماليس بسيارة.. فتاة فى العشرين كانت هناك على الرصيف المقابل.. أشعة الشمس تحتال حتى تصل إليها من بين أشجار النخيل السامقة.

مشدودة تقف.. متمتعة بشبابها المتوهج.. مصوب وجهها الخمرى نحو جهة محددة.. أنف دقيق يختفى بين خديها البارزين، حول كل عين قوسان من الكحل لا يحددان المدى الجامح.. الشفتان وحشيتان، تشتعل فيهما حمرة.. يتطلع إليها ويرى الشفتين تنفتحان قليلا ثم تنطبقان فيرتجف رعبه الشبقى.

تراجع من أمام السيارات وصعد بظهره إلى الرصيف ، تابع إشاراته من موقعه الآمن ، منفردا بسره الجنين ، وعيناه تسافران فى الرحلة الأبدية . . الحنين يلهم الأنواع والأجناس أنشودة الملحمة البشرية . . تحدقان فى قطعة من الجمال أرسلت أشعتها بلا رحمة للرجل المرورى اليتيم .

الحذاء ذو الكعب العالى أبيض تزينه وردة حمراء . تخرج من فردتيه ساقان ماله يحدق بهما ؟ - هل يرى ساقين للمرة الأولى ! ! ألم يكن للحاجة أم بشندى مثلهما على الأقل قبل أن يدهسها التهاب الكبد فتذوى وترقد وتئن ، ويطول بها السقم لعشر سنين ، وكانت - والحمد لله - قد زوجت بناتها السبع وأنجبن أحفادا لايكاد يراهم ، وإذا رآهم يوم الجمعة لايميز أحدا منهم ، لكنه بالطبع يكون فرحانا لمجرد علمه بأنهم فى البيت ، وفى الشارع وفوق السطوح وعلى درجات السلم يتصايحون .

هل يدرك أصحاب السيارات المندفعة ما جرى له منذ دقائق ؟ ومن تراه يدرك السر فى اتقاد الجذوة من جديد ، وعودة الحياة الأرجوانية إلى البدن الهشيم ؟

الساق مسحوبة يا جماعة من فوق الكعب صاعدة وممتلئة بالتدريج المحكم إلى بطن الركبة ، الساق البيضاء تهمس بطراوتها فى بقايا غرائزه . . ضغط على دفتر المخالفات . . الساقان الآن بين يديه وصدره المحموم . . ألا يزال لمرآى الصبايا

نقر فى الحطب ؟! ما أحوج الصدر الخشن لعناق فواكه الربيع ! فربما اعتدل الكون المقلوب بأعماقه .

خلع الكاب . مسح الرأس العرقان بمنديله الفدان . . بدا الشعر الفضى مضيئا فوق الوجه الأسمر الذى صفعته الشمس آلاف الأيام .

– اذا كان زمان أم بشندى قد مضى فهل يمكن أن يبدأ الآن زمان آخر يعيد له الشباب والأمل ، وهو الذى لم يتذوق من متع الحياة إلا القليل «بل أقل القليل» .

الأرض تحته شرعت فى التحرك والتفتت وهو مجذوب نحو الفتاة ، يراقب فستانها السماوى الحرير ، يعبث به الهواء كما يشاء ، لكنه لم يتجاوز أبدا مطالع الفخذين إلا فى أحيان نادرة ، تمتد يد الفتاة لتكبح هوى الهواء المستهام ونزق الرداء الشفيف .

– هل تراك تتساءلين ماذا أستطيع إزاءك ؟ . . يكفى أن افتح بالميدان ثغرة كبيرة أدفع كل سيارات العالم إليها ، وأتفرغ لك ، علىَّ أولا تنظيم دقات قلبى حتى تلائم دقات قلبك ، وأتوجه إليك بكل ما فىَّ من الوحشة والعمر القليل . . أيتها الفتاة التى لاتفتأ تنتظر شخصا آخر .

أفاق على الصخب المجنون وزئير آلات التنبيه ، فألفى السيارات وقد ركبت فوق بعضها ، وتكدست طبقة على طبقة ، وركابها يصرخون ويلعنون العسكرى الذى تركهم

يتكدسون ويزمرون ويصيحون.. نزع شاربه وشق صدره بالطول، أخرج قلبه المنتفض والذى تناثرت على صفحته نقوش العشق. وضعه على كفه.. عبر الطريق إلى الجانب الآخر.. قدمه لها.

تأملته الفتاة.. ابتسمت له.. لمحت التجاعيد التى تسكن جانب القلب.. عبثت بشعر المتيم العجوز.. أعجبت بسلاسل الفضلة الناعمة.. رضيت عن نظرة التدله الطيبة فى عينيه رغم الأسى الذى يلونهما أغمضتهما لحظات الرضا توقا وأملا فى الوصال الشحيح.. أرسلت قبلة فى الهواء لقلبه الضامر ذى الشقوق.. نفخته فطار. بدا خفيفا كورقة، مثقوبا كإسفنجة.. فوجئ شاهين بالقلب يغادر كفه على عجل ويندفع مفارقا أو مطرودا كأنه يخلو تماما من الصبوة.. سقط على الأسفلت.

أطلق صفارته للقلب كى لايتحرك.. تحركت السيارات ودهمت قلبه.. حولته الى صورة على الأرض.. اختفت الثقوب ونقوش الهيام.. فرت دمعة من عين العسكرى وأسرع المكلوم ينادى قلبه المسحوق.. اندفعت السيارات وهى تراه مشقوق الصدر وبلا قلب.. سحقته وسحقته.. بدا للجميع مجرد صورة على الأرض.. عسكرى مطحون وقلب محطم وكسير.. لكن الشارب مبروم.

أخيرا توقفت سيارة صغيرة بلا عجلات، يقودها شاب..

من سقف السيارة المفتوح قفزت الفتاة إلى أحضانه، زحفت السيارة. لحقت بها السيارات. دفعتها أمامها حتى اختفت عن العيون. الناس لم تعد تنظر إلى اللوحة الأرضية.. العسكرى المسحوق وإلى جواره يرقد فى سكون واستسلام قلبه المكلوم وشاربه المبروم، حاول أن يرفع رأسه لينظم المرور أو يحرر المخالفات.. كانت هناك يمامة صغيرة لها أجنحة زرقاء من حرير ترفرف فوق العسكرى.. ابتسم لها وأغمض عينيه توقا وأملا فى الوصال المستحيل.

٢٠٠٢

صحراء حليمة

وقفت حليمة أمام خيمتها المصنوعة من البرش (سعف الدوم) تتطلع إلى الشمس التى رحلت بعيدا عن منتصف السماء، مبتهجة صوب الجبل الغربى.

لاطفت بدنها الممشوق نسمات طرية، ومرت بحنان على خديها.. استشعرت أن حرارة الشمس ليست كما كانت فى الأيام الماضية،.. عبث الهواء بثوبها الأزرق الفضفاض الذى يشملها جميعا حتى يغطى رأسها وما لبث أن انحسر عن الشعر الكثيف الفاحم.

طرحت نظراتها فى الأفق الممتد بلا نهاية. خيمات قليلة متناثرة على بحر فسيح من الرمال الناعمة.. تشبه مجموعة من الزوارق الصغيرة التى ضلت طريقها بين الموج.. السماء

صافية لاتزعج مسيرة الشمس عليها إلا غيمات تتخلق إبان شهور الشتاء.

خرج زوجها آدم قبل أن يطلع من البحر أول خيوط النور، ليسأل الرعاة العائدين من الجنوب عن نياقه. انقضى من النهار نصفه ولم يعد.. تسللت أظافرها إلى شعرها.. عبثت به قليلا.. هرشت مواضع من رأسها.. كان جسدها كله يستشعر دبيب نمل كبير يمشي عليه ويدغدغ لحمها.. ودت لو تستحم، لكنها أرجأت ذلك حتى يعود آدم.. قبضت على خصلات من شعرها وقربتها من شفتيها وشردت.. تمنت أن تحني شعرها.. أرجأت ذلك إلى الغد.

كان الأولاد يلعبون في خيمتهم الصغيرة الملحقة بخيمتها الكبيرة، العنزات تتقافز بعيدا تحت شجرة «السيال» الجرداء. تتوهم العنزات ظلالا للشجرة لاوجود لها.. الشجرة تشبه فتاة عجفاء.. شعثاء الشعر زائغة النظرات، تنتظر وحيدة في الصحراء لايؤثر في سمتها ليل أو نهار.

طلبت البنت الصغيرة لبنا. الوعاء فارغ.. عليها أن تنتظر حتى يعود آدم فيحلب العنزة.. تساءلت للمرة الألف بعد الألف..

- لماذا لاتحلب البنات في قبيلتنا العنز؟

عادة غريبة.. لابد أن يحلبها ذكر.. تذكرت أنها في بداية صباها سألت والدها عندما نهرها لأنها حلبت العنزة..

لم يجبها، غير أنه صرخ فيها محذرا ألا تعود لمثل ذلك.. لم تستطع الصمت، فقد روى تحذير أبيها نبتة السؤال فكبر وتفرع وملأ أعماقها.. سألت أمها فلم تجبها، وحذرتها ألا تعود لحلب العنزة أبدا طالما كانت على قيد الحياة.

فهمت مع الأيام أنها أوامر الأسلاف الراسخة ولايتعين الخروج عليها، لذلك فلا تقرب امرأة أبدا العنز ولا النياق.. ولا تذكر من الذى ألقى فى روعها، لعلها زوجة عمها أو جدتها أن المسألة تخص السماء وأن للشيطان يداً فيها، والمخالفة تفتح أبواب الشرور.

ابتسمت فى سرها حليمة، عندما تذكرت فاطمة الشقية التى تعرف كل شيء.. صديقة طفولتها الحبيبة.. قالت فاطمة:

- إن عضو الأنوثة فى بعض البهائم يشبه عضو الذكورة فى الرجال.. هل فهمت؟

ابتسمت فى سرها حليمة من جديد قبل أن تتلفت حولها لتتأكد من أن أحدا لايراها أو يسمعها أو ينصت لحديث صديقتها الذى مضى عليه نحو عشرين عاما.. قالت متخابثة:

- لا.. لم أفهم

استدرجتها الذكريات إلى عالم ملون ومزين بالخضرة.. ترقص فيه الضحكات، وتتمايل الأجساد البريئة وتركض

وتتساقط وتتناثر على الرمل..

قالت فاطمة: بل فهمت

أكدت حليمة أنها لم تفهم، طلبت إليها فاطمة أن تقسم بأنها لم تفهم.. ضحكت حليمة والآن تكتفى بالابتسام.. التذكر يقلب صفحات الكتاب الجميل الذى طوته الأيام.. العمر صحراء ممتدة، عامرة بالرياح والرمال.. والذكريات وضحكة الأحباب وأشجار السيال وبقع العشب الأخضر يسعى إليها البشر كما يسعى إليها الجمال والعنز.

ألحت فاطمة: إذن اقسمى

تخابثت حليمة من جديد:

- بماذا أقسم؟

لاذت فاطمة بالصمت برهة ثم قالت بانتصار

- اقسمى بحياة خطيبك الذى لم يظهر بعد إنك غير فاهمة

فرحت حليمة بالقسم.. فأقسمت، وطالبتها فاطمة بأن تقسم نفس القسم ثلاث مرات حتى تتأكد من أنها لم تفهم وعليها إذن أن تفسر لها أكثر لعلها تفهم.

عندئذ ضحكت حليمة وهى تتذكر أنها أقسمت كثيرا مؤكدة أنها لم تفهم، فدفعتها فاطمة فى صدرها دفعة قوية ولما وقعت. ركبت فوقها، وقرصتها من ثديها، وقالت لها: يا خبيثة أنت تفهمين.

انتشت حليمة وهي تتذوق حلاوة الأيام والذكريات وشقاوة البنات وخاصة فاطمة.. وشاركت الذكريات بقولها:

- أخذنا نتقلب فوق الرمال، والضحكات تخرج من أجسادنا كالفقاقيع.. وكلما تقلبنا ضغطنا على الضحك المخزن فينا فخرج، ثم توقفنا وشعر كل واحدة محمل بذرات كثيرة من الرمل.. بحثت عن غطاء رأسي حتى عثرت به مدفوسا في قفاى بينما طارت الريح بغطاء رأس فاطمة، وجرينا معا للحاق به ولم يتوقف إلا بعد أن سبته المجنونة.. الله يلعنك يا فاطمة.. كان زمن.. الله يسعدك يا فاطمة وين ما كنت.

أفاقت على نداء ابنتها الجائعة، تلح في طلب الطعام متأهبة للبكاء.. أسرعت إلى العنزة فحلبتها وهي تحس بفاطمة ترقبها وتضحك وتقول لها: يا ويلك.. يا ويلك.

مضت يداها تجذب الضرع وتملأ الوعاء، ثم توقفت فجأة بعد أن تذكرت عودة زوجها القريبة وغضبه إذا رأى نقطة لبن.. أسقطت في اللبن لقيمات، وجلست لتطعم طفلتها.. فرحت الطفلة بالطعام وطلبت أن تأكل بنفسها.

دخلت حليمة الخيمة. اتجهت إلى آخر ركن فيها من الناحية البحرية. انحنت فقبضت على عنق كيس صوفي أزرق، عليه نقوش لطيور تبسط أجنحتها. جلست فيما بين الخيمتين المرتبطتين بسقف واحد حيث يمر تيار ناعم.

رفعت الكيس إلى أعلى ثم صبته من الهواء في حجرها . . عشرات من الودع الأبيض الصغير اللامع . أخذت تلضم ودعة بعد أخرى في خيط رفيع من الصوف ، ولما امتلأ الخيط بالودع حتى كاد يختفي إلا طرفاه ، مرت يداها بحنان وبسطته مستقيما على الأرض .

التقطت خيطا آخر ، ومضت تحتفن الودع الأبيض من حجرها وتعلقه في الخيط ، وبعد أن يمتلىء بالودع ويوشك على الاختفاء ، تحطه ممتدا ومستقيما إلى جانب الخيط الأول .

لم تكن حليمة تكف عن العمل ، رغم ما تبدو عليه حياتها وحياة قبيلتها من فراغ . كانت تصنع بيديها كل شيء بعد أن انسلخت عن طفولتها وتجاوزت العشر سنوات . تعودت ألا تجلس ساكنة أو خاملة تحدق في الخواء الذى يهيمن على كل شيء . ليس ثمة معنى للانتظار فالإنسان ينتظر مالا يجيء ، لكنه لايملك إلا أن يتمدد في الوحشة والسكون ولايستطيع أن يفعل أى شيء حتى لإبله التى لاتطلب عونا من أحد ، ولاتعرف ربا ولاصديقا إلا العشب ، وهى وحدها القادرة على البحث عنه والعثور عليه .

بنت حليمة الخيمة من سعف الدوم ، ولم يفعل آدم غير دق الأوتاد في الأجناب الأربعة ، هى التى نسجت من السعف كل الخيمة . . جدرانها . . سقفها ، وبعد سنوات قليلة نسجت الخيمة الصغيرة أيضا . . كما صنعت من السعف والصوف

صينية الطعام والسلال والأسرة والسجاد والوسائد والمصلاة وزينة الهودج ومن الصوف وحده صنعت عقال الجمال والأغطية التى تقيهم برد الشتاء والليل، وكانت موهوبة فى تزيين السعف وتلوينه وإجادة غزل الصوف ونسجه والقبيلة كلها تشهد بذلك وتقر لها بالتميز..

أخذت تلضم الودع فى خيوط الصوف، عازمة أن تصنع سلة تقدمها هدية لحماتها أم آدم، وهى تعلم أن أخته ثرثارة وسرعان ما تعرف القبيلة كلها صنع حليمة، لكن خاطرها يمضى هنا وهناك، يرتد إلى الماضى ويفكر فى الزوج الذى غاب أكثر مما وعد، ودون أن تدرى كان لسانها يكاد يردد مع الأولاد أغنيتهم التى ينشدونها بإيقاع بسيط وعذب، ومنذ ولدت.. كانت الأغنية قبلها يرددها الشجر نقلا عن الأجداد.

أبوك ماشى كاكا
جاب لك صندوق كاكا
والكاكا فى المُخزن
والمُخزن ما عنده مفتاح

بغتة قفز إلى عالمها المزدحم بالذكريات والأولاد والغياب والعمل، ولدها الكبير ذو الخمس عشرة سنة.

- جمل حرون.. لايطيق البقاء معنا والعيش فى الخيمة ومصاحبة الجمال.. كرار هو السبب.. حرضه على السفر،

وها هو الآن معه في قاربه.. يصيد السمك.. رحلا بالأمس من «أبو رماد» ووعد أن يؤوب من البحر غدا.. ما الذى يارب لايعجبه فى حياتنا؟

كان قد رد على سؤالها هذا من قبل وها هو يرد الآن ويتردد فى ذاكرتها:

- هذه ليست إلا حياة الفراغ والعدم. لا شيء يربطنى بهذا المكان.. خيمة فى صحراء وجمال ترعى.. حتى الجمال هجرت المكان.

كانت ملامحه ترتجف تحت الصدى العنيف للكلمات التى ينطلق بها لسانه، وتلك التى لايبوح بها.. لسان حاله يقول:

- أى شيء ربطنى بهؤلاء الناس وهذه القبيلة.. روابط هشة.. هل قدر لنا أن يبرينا السأم.. صحراء من الرجال وصحراء من الماء.. وسماء بعيدة.. بعيدة جدا وصامتة.. ليست هذه كل الدنيا.. لابد أن هناك عالما آخر خير من وحشة هذا المكان الميت.. هل يعنى هذا الصمت والسكون والجمود إلا الموت؟

أوشكت الدموع أن تنبت فى عينيها.. أخمدتها ومنعتها من التبلور والترقرق فى مآقيها.. أدركت أن الدموع ليست فقط إشفاقًا على ولدها وحيرته ولكنها ربما تعنى موافقتها على ما يقول.. ولايجب أن تفعل وإلا تفككت الخيمة، وجرجرت الريح الأوتاد.

عاد يقول بحدة :

- الجبل خير من هنا ، والوادى خير من الجبل ، والبحر خير من الوادى . . بعض الكلام الذى يلقيه ويستخرجه من روحه قابل للفهم وبعضه لاتقدر على فهمه ، وإذا فهمته تشعر أنه كلام قوى كبير لاتملك مواجهته أو الرد عليه . . همهمت لتغير الموضوع الذى أحست معه ببرودة الجو

- سوف يأتى غدا . . ليته يأتى

***

هل كانت تلك البرودة التى خضّت بدنها بشدة بسبب الكلمات العفية التى شرعت تنطلق على لسان ولدها الذى شب مبكرا وأخذ الكثير عن والده ، طولا وحدة فى الملامح والنظرات وخشونة فى الصوت ، أم لأنها فجأة تذكرت هذا الوالد . . الزوج الذى يملأها بالحياة حتى لتوشك ألا ترى غيره . . أى كائن طيب وجميل حتى حين يغضب ، وحين يسرح وتتسرب منه نظراته إلى المدى المسافر أبدا .

تركت الودع للرمل واندفعت خارجة من بين الخيمتين إلى الخلاء ، وقد أدركت أنها تصرفت بنزق زائد فدهست الودع وخيوطه بقدميها طالعة نحو آدم الذى تصورت أنه على بعد نظراتها المشوقة لمشهده الحبيب .

ما بال عصفور قلبها لايطمئن ، تشعر أنه فى صدرها حائر . . ليست قلقة تماما ، ولكنها مشتاقة للرجل أكثر من

كل مرة، أو مثل كل مرة وهى غارقة فى التوهم، مع أنه لم يغب إلا ساعات بدأت مع الفجر.. مضى يتفقد أخبار نياقه وأحوالها من نجع قريب.

صدق حدسي أو كاد. فقد كان ثمة شخص يظهر من أبعد نقطة.. دق قلبها.. قالت في نفسها:

- ريته هو

أدركت فعلا أنها على غير حالها.. أحست بفراغ هائل في أعماقها.. دقات قلبها ترج هذا الفراغ وتدوى فيه.

وصل آدم إلى أرض القبيلة التى عاد إليها رعاة كانوا فى إثر إبلهم التى مضت ترعى حتى تجاوزت جنوب بورسودان.. زاروها واطمأنوا عليها.. ووسموا صغارها برسمهم وعادوا.

سألهم عن نياقه، فسألوه عن وسمها.. رسم لهم على الرمل وسم القبيلة ورسم العائلة المدموغين على أفخاذها.. قال لهم:

- رحلت بحذاء البحر منذ عام

قالوا له:

- رأيناها ترعى مطمئنة.. الأرض خضراء بعد هطول المطر مرتين فى الصيف.

سألهم:

- هل كانت معها صغار؟

أكدوا له أن معها صغار

كانت الإبل تتلمس العشب وتتبعه أنى سلك من دروب.. تتحرك على طول ساحل البحر الأحمر من القصير شمالا وحتى إريتريا جنوبا.. لاتعرف الحدود الإدارية والسياسية. لاتعرف اسم البلاد والعباد.. ولاتدين إلا بدين العشب والماء.. الأمان الكامل يشمل مسيرتها التى قد تمتد أعواما.. ترعى وتجتمع وتتجامع وتتناسل، عالم مفتوح أمامها.. رمال بلا نهاية، منبسط فى أغلب الأحوال.. بحر ذو مياه زرقاء تلمع خصيصا من أجلها لتشعرها بالونس، وهى تطمئن إليه كما تطمئن إلى نجم فى السماء يرشدها ويحدو سبيلها.

تهلل قلبه، إذ علم أن نياقه بخير، وقد حملت ووضعت صغارا تسعى معها إلى حيث مراعى الله الواسعة.. روحه معلقة بها. تأجج الشوق.. لايحب فى الدنيا غيرها.. صبر على بعادها عاما.. فلا أقل من أن يزورها ويرعاها أسبوعا أو أسبوعين، وقد يفكر أن يعود بها لتقضى معهم شهور الشتاء. إنه حقا يحب حليمة، لكن النياق حياته وطعم أيامه.

لمحته حليمة وهو قادم يعتلى جمله من بعيد.. واثقة أنه هو. كل الجمال تسير سيرا متشابها، لكنها تشعر أن هذا جملها.. كل الرجال ترتدى الصديرى الأزرق لكن الذى يرتدى هذا الصديرى ويجثم فوق الجمل رجلها.

حومت حوله الأضواء المنفلتة التى تشبه سيوفا تبرق..

تظهر وتختفي تلتف حول سيقان الجمل الرشيقة، وتسبح في الفضاء الذى يشقه بثقة.

ها هما ركبتاه الأماميتان تعلوان وتهبطان. تخوضان فى موج المياه الضوئية التى لاتفتأ العين تراها، إذا غلبها الشوق لشىء، فهى كالأمل الذى يدغدغ الروح بقرب النوال.

ها هى الزينات التى صنعتها حليمة لجملها تتبدى من بعيد، متعلقة برقبته كما تتعلق بها الآن حليمة، الزينات تهتز مع الخطو الراقص المندفع نحو الخيمة وأحضانها.

لم يعد ثمة شك، فليس فى القبيلة، من تصنع مثل هذه الزينة وتلونها كما تفعل.

أخبرها بنبأ نياقه فسرت، وسألته عما ينوى، صارحها بعزمه على الرحيل العاجل إليها.. هذا إذن سر اضطراب قلبها.. حدسها لايخيب.. لكنها اشتاقت مثله للنياق فهى أهلها وأكثر.. وافقته على ما انتوى، ولم تعبأ بشكل الأيام التى يغيب إبانها عن بيته..

قامت تعد له الطعام، ما لبث أن لحق بها وسول لها أن ترجئ الطعام فهو بحاجة إليها.. دعا الأولاد كي يخرجوا للعب فى الساحة مع عيال جاره..

دنا من زوجته يداعبها وتداعبه.. كيف يمكنه أن ينال منها ما يكفيه زادا حتى يعود بعد شهور، تطلعت إليه وهى تفكر فى غيابه الذى حتما سيطول إلى أيام وأيام، ولن يعود

قبل مطلع الشتاء.. هل يمكنه في لقاء واحد غامر وعميق أن يرويها بما يكفي.. الجسد لايعرف الحساب، والعشق لايعنيه المستقبل بقدر ما تعنيه اللحظة المعيشة.. كشفت الأبدان عن كل الأسئلة والمخاوف، وعبرت عن اللهفة والمصير الواحد وتجدد الشوق الملتهب ومازال المسافر لم يغادر دفء بيته وحضن الرفيقة الغالية.. نال منها وطره ونالت: يعرف أنها كالناقة لن تعاني الظمأ.

تحممت وسرحت شعرها، ولمته مؤقتا بطاقية كبيرة من الصوف.. قامت تعد الطعام ولوازم سفره، ريثما يغفو. طلب منها أن توقظه عندما يصبح ظلها في مثل طولها.. عندئذ تتهيأ الشمس للغروب فيرحلا معا.

كان لديه جمل وناقة ووليدها.. عليه أن يختار بين الكبيرين.. مال لاختيار الناقة فهي طرية في السفر تحت بدنه وخفيفة الحركة ومطواع، لكنه رأى أن يتركها للأولاد ليتغذوا بلبنها..

أعدت الجمل للرحيل. وضعت له في الكيس «الكبور» والدقيق وملفحة صوفية طويلة.. كيس الماء والمنجر.. الكبريت ووعاء الفخار وغطاء من الصوف فرشته فوق سنام الجمل، لم تنس الأمبلهويت الذى يتسلى بالعزف عليه.

لم يحتمل هذه اللحظات الأخيرة التى تجهز الزوجين للفراق، وتنزع الحبيبة من الحبيب.. قبلها وضمها إلى صدره

ونابت عنه نظراته في كل ما يريد أن يحدثها به، تعود أن يشكر الله إذ منحه زوجة لاتحتاج لكلمة، فقد شربت طباعه، كما نهلت من نبع الأجداد مايجب أن يكون.. نبتت في عينيها الدموع.. عانق الأولاد واعتلى الجمل الذى نهض بخفة وتلفت يودع الحى.. اسرعا معا يصاحبان الشمس في السفر.. هي إلى الغرب وهما إلى الجنوب.

وقفت زوجته تملأ عينيها من رؤيته وهو يبتعد بسرعة.. المدى البعيد يبادر بابتلاعه حتى لم تعد تجد دليلا عليه إلا الصديرى الأزرق.. هكذا رأت ثقافة القبيلة، فبدون الصديرى الأزرق تتعذر رؤية الرجال والجمال وهم ضائعون في الرياح والرمال، والمدى المغمور في الغموض..

مضى بحماس يمخر الأرض الجرداء ويخفف عن قلبه عبء الفراق حتى أصبح وهو يخلع قلبها أخيرا مجرد نقطة سوداء في منتصف المسافة بين الجبل الذى يضطجع على جانب الأفق الأيمن والبحر الذى تتألق صفحته المعدنية الزرقاء على جانب الأفق الأيسر.

لما اختفت النقطة السوداء تماما، تحولت حليمة إلى الجبل فطالعتها الحافة الأخيرة من قرص الشمس.. واجهت الجميع بملامح جامدة معلنة أنها قادرة على الحياة عدة أشهر دون رجلها المشيع بالأماني والحب المكين.

أسرعت إلى عالمها الذى أضحى خاويا، تصب الماء برفق

على الدقيق وبعض اللبن لتعد العصيدة لعشاء الأولاد، بينما كان آدم عازما على أن يشق طريقه فى التيه وحيدا فوق رحال لاتكف عن ابتلاع الأساطير المحترقة ممنيا النفس بلقاء الأحباب، متسائلا عن أحوال الصغار من إبله.. اخضرت روحه لرؤيتها حلما فى الظلام، وبزغت الآمال فى غد أكثر ظلا وهناء.. وسرعان ماتألق فى الوحشة الكثيفة، طيف حليمة ورأى الدرب جليا فربت على الجمل بيده.. فهم الجمل معنى اللمسة فانطلق كالغزال يتقافز، محاولا أن تتقاطع قفزاته مع الزمن الهارب، على أمل أن يتحقق مراد صاحبه الذى يطمع بوصوله العاجل للنياق أن يعود إلى حليمة.. واحته الأثيرة فى صحراء العمر.

٢٠٠٢

الشَّبكة

مابين السماء والبحر ، فرش نظراته على المدى المفتوح بلا نهاية كأنه يشحن بطارية روحه.. الشبكة ثقيلة جدا.. مهما بلغت كمية السمك فمن المستبعد أن تكون بهذا الثقل.. لم يحدث فى مرة طوال أربعين عاما أن حملت شبكته كل هذه الكمية التى يتعذر عليه جذبها.. داهمه خاطر غريب.. لابد أن زوجته بداخلها.

لقد توقف عن حمل زوجته منذ نحو عشر سنوات بعد أن واصلت سمنتها باقتدار وثقة.. لعلها الآن تقترب من مائة وعشرين كيلو جراما.. لقد أصبح السرير يعانى من وزنها ، ويمكن أن تصمد آهاته بعض الوقت لكنه حتما سيسقط.

الشبكة ثقيلة جدا.. ربما علقت بصخرة أو حطام زورق أو باخرة وربما قفز إليها بغلٌ ميت.

واصل الجر بعزم قوته حتى مال ظهره تماما وقد غرس قدميه في حافة المركب، بينما كفاه تقبضان باستماتة على حبل الشبكة، وذراعاه توشكان على الانخلاع من كتفيه.

مر اليوم بطوله دون سمكة واحدة.. وفى الوقت الذى تتابع عيناه شبكته وتحاول أن تنفذ داخل الماء تستعجل الرزق يرحل عقله إلى البيت الذى خلا من الخبز، وهاهى زوجته برغم ذلك تضحك دائما وتثرثر مع كل الجيران وتوزع محبتها عليهم: قلبها أخذ نصيب عشرات النساء من المودة والرضا.. طعامها قليل، وتعتمد على الكلام والأحلام باليقظة والمنام.. امرأة طيبة للغاية، ولكن لماذا تسمن على هذا النحو كأنها تأكل كل ما اصطاده؟

مر اليوم بطوله دون سمكة واحدة، لكن مع قرب سقوط الشمس فى نهاية الأفق الغربى وقد صبغت السماء بشقرة محتقنة، ها هى الشبكة تحمل إليه ما لم تحمله من قبل.

واصل الجر بجهد أكبر يشجعه إحرازه بعض التقدم ولو ببطء.. كانت فكرة جيدة أن دخلت مسافة أبعد فى البحر أمام عزبة البرج بما يتجاوز قدرة المركب.. حدث نفسه: كل الدمايطة من أهلنا سيدهشون إذا رأوا كمية السمك التى حملتها الشبكة.. لن أقول إن كل الكمية خرجت مرة واحدة

وإلا تعرضت لعيون حاسدة وقلوب لا تحتمل خير الآخرين..
سأقول إنها حصيلة النهار كله.

ها هي بدايات بطن الشبكة.. تحمس أكثر لينتهي من هذا الماراثون وقد استشعر أن خيوطها قد طالت.. عاد يحدث نفسه: حتى لو قلت لهم إنه محصول نهار كامل لن يصدقوا.. أولا لأن بعضهم سيعرف من حالة السمك الذى سيظل يتقافز ممتلئا بالحيوية وباحثا عن الماء.. وثانيا لأن زورقي صغير كما أنهم يلاحظون قلة محصولي منذ سنوات.. صحيح أنني بلا أبناء غير صبية واحدة في الرابعة عشرة جاءت بعد معاناة وعلاج، لكنني لا أريد من صاحب الخيمة الزرقاء إلا أن أزوجها قبل أن أموت، وأن أتمكن من تجهيزها بشكل يرفع رأسها أمام صاحب النصيب.. ثم بعد ذلك فليأكلني السمك.

انتهى الصراع وتحقق المراد.. سقط مع الشبكة وحمولتها في قاع الزورق.. ظل لحظات مرميا على ظهره.. عيناه تتطلعان إلى السماء كأنه يبحث عن الله ليشكره.. اعتدل بجذعه ليشهد الحصيلة.. عاوده الخاطر المضحك.. ماذا لو كانت زوجتي هي التي ستخرج لي من البحر؟.. طرد خاطره بسرعة لأن ضحكها بالتأكيد سيتعالى حتى وهي في الماء.

ليس باستطاعة الشبكة أن تستجمع سمكا بهذا الوزن الثقيل، فعلاقة أوزان الأشياء بأحجامها معروفة مهما كانت

كثافة السمك وتجمعه فى مكان بعينه.

تنهد بعمق، وتطلع من جديد إلى السماء.

اعتدل وحدق فى الشبكة.. لم يجد سمكا ولا حمارا ميتا ولا حتى زوجته.. لم يجد قطعة حديد ولا تمثالا حجريا.. فتح عينيه إلى أقصاهما دهشة وهرولت فى أعماقه مشاعر متناقضة.. هل يفرح أم يحزن؟.. هل يشكر الله أم؟. عليه أن يشكر الله الذى لايُشكر على مكروه سواه.

كانت هناك ترسة بحرية ضخمة لم يصادف مثلها ولا حتى فى المتاحف.. ترسة حية تقلب نصف عينيها فيما حولها، يغلب عليها اللون الأصفر المغبر، إلا أن الدرقة بنية تقسمها خطوط صفراء.. ذراعاها ورجلاها نائمة أفقيا على الأرض فى شبه استسلام.. رأسها كبير.. يبدو سنها من جلد وجهها المتغضن ونظراتها الغامضة.. طولها حوالى المتر ونصف المتر وعرضها نحو ثلاثة أرباع المتر.. استقرت عيونها على صائدها العجوز الذى كان يحدق فيها محاولا التأكد من أنها ترسة وليست كائنا خرافيا مسحورا، ثم لا يلبث أن يدهش لأن الشبكة لم تتمزق.

إنها ترسته التى ظل يكافح معها ساعات طويلة.. إنها قدره المكتوب له باللوح المحفوظ.. مضى يحدث نفسه.. لم أصطد سمكة واحدة طيلة النهار لألتقى بها وتكون من نصيبى أنا بالذات.. أنت ترستى.. لم يصطد أحد ترسة من

قبل.. لا صغيرة ولا كبيرة.. يتجاوز وزنها ثمانين كيلو فيما أظن.. ستصرخ زوجتي فرحا.. ستطلب أن تبقى في البيت.. سوف تبقى.. ليس مهما أن نأكل اليوم.. لتبقى الترسة.. ستعيشين معنا أيتها السيدة القادمة من بعيد.. سيحبك الجميع ويقدمون لك كل ما يرضيك.. وتلعب معك هدى.. دعيها تلعب معك.. ستطلب النساء في كل ساعة مشاهدتك والحديث إليك.. يجب أن يكون لك اسم.

كل إنسان في دمياط سيعرف منزلنا ويطلب النظر إليك.. لكنك لن تردى بأية كلمة وصعب فيما أظن أن تتعلمي.. آه.. الليل هبط فجأة.. هيا بنا إلى الشاطئ.

ضبط الشراع الصغير وأسرع إلى الدفة متجها إلى البر.. نظراته لاتفارق الضيفة العجوز الساكنة التي بدت غير عابئة بالشبكة الملتفة حولها تماما.

طعامها ليس مشكلة.. يمكن أن أشترى لها بعض السمك الصغير أم إنها تأكل الخضرة.. يجب أن تنتقل الآن وبسرعة إلى البيت، كيف يمكن ذلك؟ إنها كبيرة جدا وثقيلة.. مؤكد أنها عجوز.. لن تأكل كثيرا، ولكن من الذى يمكن أن يشتريها.. غالبته مشاعر الأسف والحيرة.. لا أحد.. لا أحد. تنهد من أعماق رئتيه.. هل هذه هي حصيلة اليوم؟

جهد كبير ووقت طويل بدأ منذ الصباح من أجل اصطياد المحروسة التي لن تباع، فهل أذبحها وأبيعها قطعا؟.. ومن

الذى سيشترى لحما مجهولا ؟ .. وإذا سألونى ماذا أقول ؟ .. حتى ولو لم يسألونى .. هذا لايكون أبدا .

بقى الاثنان على الشاطئ .. يحدق كل منهما فى الآخر ، هى داخل شبكته ، وهو قابع فى شبكة الحيرة لايعرف الطريق الملائم إلى الخروج من الموقف بما يفيد ، وقد تيقن أو كاد أن اليوم ضاع بلا عائد ، والبيت بلا لقمة وزوجته تواصل الضحك والسمنة ، وتثرثر الآن كعادتها مع كل البشر وكل شىء ، حتى مع أدوات المطبخ والكراسى والدجاجات القليلة التى لاتبيض منذ شهور ، مع أن الديك الوحيد الجميل لايكف عن التعبير عن ذكورته الهائجة ومشاعره العاطفية ، ويصدر فى أحيان كثيرة عنفوان شبابه لدجاجات الجيران قفزا من فوق الأسطح حسب نداءات الرغبة الدجاجية .

كل ما فيه الآن مسرح للتساؤلات ، كما كان وجهه وذراعاه والظاهر من صدره مسرحا لضربات الريح وصفعات الشمس وهجمات الموج الهادر .. لعبته مع الرزق تتواصل بين الوعد والانتظار .

ذكرته نفحة برد خفيفة بأن الليل يتوغل ولابد من نهاية لجلسة بلا معنى أو غاية .. عاد يفكر بمايتعين عليه عمله .. لم يجد بدا من إبلاغ الجهات الرسمية . استشعر جفافا فى حلقه وغلبته الحيرة .

ساوره الخوف عليها إن هو تركها وحيدة .. دفع كل

هواجسه من أجل الخلاص.. أقرب الجهات المعنية هي شرطة المسطحات المائية التي تقبع على آخر حدود النيل قبل أن يصب ماءه في البحر الكبير. أسرع إلى هناك محاذرا أن يسقط، فقد كان الطريق يتلوى تحت قدميه مغموسا في بحيرات الظلام.

حضر الضابط وثلاثة من الجنود للمعاينة وكتابة تقرير.. أبلغ الضابط بسرعة إدارة البيئة بالمحافظة وكذلك وكيل النيابة، ورفعت البيئة الخبر إلى العديد من المسئولين.

جاء الجميع ليشاهدوا الترسة الضخمة ويتعرفوا على صائدها الجبار.. وجدوه إنسانا بسيطا.. أشعث الشعر زائغ العينين.. ممزق القميص والسروال متهدل الصديرى.. تسلل البياض إلى شعر رأسه وشاربه وصدره. ينتعل صندلا قديما، وبين أصبعيه عقب سيجارة، بدا كأنه يرتعش، ولا تظهر عليه خيلاء النصر.. نقلت العيون كل ملامحه إلى الظنون والهواجس التي أطلقت دهشاتها لأنه يبدو بائسا وتعيسا وحالته النفيسة لاتتناسب مع اصطياد ترسة بهذا الحجم.

وصل المحافظ وسأل عن اسم الصياد بعد أن حياه.. فتش الصياد عن اسمه، فاكتشف أنه غير قادر على الإمساك به وبعد لحظات التقطه ثم لفظه: يونس يا بيه.

بلع ريقه فبدا جلد رقبته المكرمش تتحرك من تحته تفاحة آدم.

دق قلبه عندما علم بوصول البوليس والنيابة.. هل يكون البحر قد اشتكاه وبهذا يكون قد ارتكب جناية لسرقته ممتلكات البحر؟.. وربما كان للترسة أهل يتمتعون بحيثية سياسية أو اجتماعية.. تمنى على الله أن يستره ويستر ابنته.. همس بعض الناس:

- سنسميه يونس أبو ترسة.

وعلق البعض: كفاية أبو ترسة

قام الدكتور رئيس البيئة بنفسه بتخليصها من الشبكة وربت على ظهرها بحنان.. اهتزت رأسها هزة خفيفة لاتراها العيون شاكرة للرجل حسن صنيعه ومضت في السر تقلب عينيها في الجمع الكبير الذى تغمره الفرحة بمشاهدة الحدث الجديد. يتأملون السيدة الوقور التى تبدو كأنها مسافرة في الأحلام المجهولة.

كيف استطاع عم يونس العجوز أن يصطاد هذه الترسة.. تحدث إلى أنفسهم الصيادون. بعد حوارات المحافظ مع المسئولين.. فوجئ به يونس يقول:

- هيا.. ألقوها في البحر.

علت همهمات كثيرة.

سأل صحفي: لماذا لانحملها إلى حديقة الحيوانات؟

نظر المحافظ إلى رئيس إدارة البيئة الذى قال بعد أن أخذ رأى هيئة العلماء.

- هذه ترسة عجوز ومكانها البحر، ربما تموت إذا استمرت خارج المياه لمدة يوم أو يومين، ولن تكون مفيدة بأى حال للحديقة، بل ستكون فى خطر..

بصعوبة وبعد تردد، سأل يونس بصوت متخاذل:

- هل يمكن السماح بأن تعيش فى بيتى مع زوجتى وابنتى؟.. اطمئنوا سنوفر لها الرعاية الكافية؛

باقتضاب، رفض المحافظ وطلب من المصورين تصويره مع الترسة ومع يونس.. دعا يونس زوجته وابنته اللتين حضرتا مع الآخرين.. عملت الكاميرات بأقصى ما تستطيع لإنقاذ الحدث من الضياع، لكن يونس انشغل فجأة بفكرة أن الترسة بطنها كبيرة ولاتفارق أرضية الزورق.. أكيد حامل.. كان يجب أن أصر على احتفاظى بها حتى تضع حملها.. ترسة صغيرة جميلة تصادقها هدى وتلعب معها وتنام وتأكل وتذاكر.

دون أن يعى تماما، قال: يبدو أن المسئول حتما أن يكون دون قلب..

شرد طويلا وهو يحدق فى الترسة ويحاول أن يعرف أعماقها من عينيها، لكنها كانت تنظر إليه بعيون الموشك على الموت.. أشفق عليها ودنا منها.. ربت ظهرها ثم قبلها، مدت إليه ببطء شديد خطمها فعاد يقبلها وقد اجتذبه هدوءها وحضورها القوى والوديع.. دخلت قلبه فجأة وشمله الأسى لفراقها.

خرجت الصحف في اليوم التالي وهي تتحدث عن يونس والترسة، صورهما تشغل حيزا كبيرا.. كما أجرت حوارا مع يونس الذى قال:

- أنا سعيد لأنها عادت إلى البحر حيث تعيش فى هناء مع أولادها وأحفادها.

أفاضت الصحف في وصف قلب يونس الكبير وإحساسه العميق بشعور الحيوان الأبكم.. كانت صورته وهو يقبل الترسة وتبدو كأنها تقبله مشهدا رائعا، خاصة وقد نشر قول يونس لها:

- اطمئنى.. ستعودين إلى بيتك ولن ننساك أبدا.. مع السلامة.. ادعى لى ولأسرتى بالستر.

تناقلت وكالات الأنباء والفضائيات قبلة يونس للترسة وقبلتها له وحوارهما الحميم.

بعد أيام منح المحافظ ليونس شهادة تقدير بوصفه صائد دمياط الأول.. وسرعان ما توالى وصول الخطاب طالبين الزواج بابنته مع استعدادهم لتحمل كل النفقات.. عندئذ سالت دموع يونس ومضت زوجته تضحك وتثرثر، وتؤلف الأساطير عن زوجها الذى غاص فى أعماق البحر وأحبته الترسة التى هى أصلا ليست ترسة وطلبت الزواج منه، لكنه يحب زوجته وابنته فأصرت على الخروج معه إلى البر. نافورة ضحكاتها ترن فى رحم الشوارع والحارات ويتعلق رذاذها بالشرفات.

وبمرور الأيام أصبحت الزوجة تضيف إلى الحكاية تفاصيل كثيرة تتسلى بها مع الجيران وتستلهم من أسئلتهم حكايات جديدة لها علاقة بالترسة التى ليست فى الحقيقة ترسة .

٢٠٠١

أردته جبانا

نعم.. أردته أن يكون جبانا، فقد شغلتني كثيرا شخصية الجبان، وفكرت أن يكون بطل قصتي القادمة.. وعندما حاولت رسم شخصيته ووضعه في موقف يكشف بوضوح حالة الجبان وبرود أعصابه خاصة في اللحظات الحرجة فوجئت به راضيا ويبدى تعاونا سبب لى القلق والإشفاق عليه من المهمة الصعبة.

أحد أقربائى كان البداية وهو السبب، فقد لفت نظرى إلى الجبان أو البارد جدا الذى لايبدو معنيا بأى حدث أو خبر وليست لديه أى قدرة على المبادرة بالفعل. ظل قريبى فى رأسى يطاردنى ويرافقنى كثيرا وأنا أحاول التخلص منه حتى استسلمت له وقررت أن أجعله بطلا لقصتى، وكان علىَّ أن

أحاول بعمق وتركيز تفهم طباعه، إلى أن أصبح لطفى بطل القصة ملهما في الجبن وعبقريا في بروده إلى درجة مقززة. ربما لم يكن قريبى هو السبب لأنى منذ الطفولة أكره هذا النوع من الرجال.

إن تأليف القصة ليس عسيرا إلى حد مقلق، وتشكيل المبررات الكافية والملائمة لإثارة الأحداث ودفعها نحو مزيد من الصدام الضاغط على أصحابها ومرتكبيها، وكذلك الذين حرصوا على أن يكونوا بمنأى عنها، ليس أيضا من العسر بمكان على صاحب التجربة والموهبة، أما الذى يتعين الاحتشاد له بالتأمل الطويل وتعدد التجارب ودقة الخلق وإدارة الأفعال بحذق فهو رسم الشخصيات وتحديد ملامحها، وإعانتها على الخوض فى نهر الحدث الموحل أو المتدفق تلقائيا نحو التعقيد المثير والمتشابك.

أردت لطفى أن يكون جبانا جبنا يبلغ حد الخيانة من فرط سلوكه السلبى المستفز للسلحفاة. زرعته وسط بيئة تتسم بالحيوية والتوتر، وبعض أبنائها يتسم بالاندفاع، بل والهياج لاسباب تافهة، وكان على لطفى أن يكون على العكس منهم خاملا لايبدى أى انفعال حتى عندما مات أبوه، وعندما أخته ضربها زوجها العربيد وطردها على نحو قاس بملابس البيت وفى عز الليل ودون مبررات ثقيلة تستوجب هذا البطش..

سأكتفى هنا بموقف واحد له هو ما حدث عندما رسب

ولده الكبير في الثانوية العامة لثالث مرة.. كان رده الوحيد الذى لم يصل إلى الآذان إلا بعد أيام من المصيبة التى قضت على دموع زوجته، وأدت إلى تخشب خديها من كثرة اللطم وإقدام الولد نفسه على الانتحار.

قال لطفى: لقد عملنا ما يتوجب عمله، وهذا نصيبه وقدره

عندئذ صرخت فيه زوجته وقد أوشكت أن تقبض على زمارة رقبته:

- أى قدر يا رجل يا مجنون.. ابنك مستقبله ضاع.

فى تلك اللحظة كان يخيط كعب جوربه، وببرود لايتمتع به غيره، حاول أن يعيد إدخال طرف الخيط فى ثقب الإبرة الذى تعود أن يهرب منه.. إنه جوربه الأثير الذى لايميل لارتداء غيره مهما تغيرت ألوان البنطلونات.

كان حتميا أن تنتهى القصة - من وجهة نظرى طبعا - بخروج زوجته ضاربة بكل قوتها وبكامل غضبها باب الشقة، ساحبة فى يدها ثلاثة أولاد، ورابع على صدرها، والحق أنهم لم يتحمسوا لترك البيت، وهى تعلم ذلك، بل تعلم أيضا أنهم لايميلون لجدتهم التى لاشك ستمضى إليها الأم فورا.

أكلنى قلبى على الرجل، سواء بالتفكير فى كل سلوكياته الماضية أو بتحميل نفسى الذنب فيما يعانيه من غم وما يترصده من مشكلات.. إننى لابد السبب فيما يتعرض له من إهانات وما يعصف بروحه من حيرة.

حاولت مساعدته على اتخاذ خطوة مناسبة بعد التصرف المتطرف من زوجته.. من المؤكد أنها لم تفكر في العواقب التي لن تقل عن تهديد العش وربما هدمه. وعدت أصب شديد اللوم عليَّ لأني زوجت اثنين متنافرين تماما، وجمعت بين الذئب واليمامة في علاقة يفترض أنها أبدية.

راجعت تاريخه وأعدت تقييم تصرفاته إزاء كل موقف، دققت في رصد العلاقة بين طباعه وتصرفاته، وما كنت لأنسى الاعتراف بأني لست خالق الشخصيات الأول، وإنما أقوم بنقل جانب كبير منها من بيوت أصدقائي ومعارفي، بل ومن بيتي ذاته أحيانا.

قررت أن أعينه على الخروج من الخط الثابت الممتد من ميلاده حتى خروج زوجته. لابد من التدخل لإجراءات تغيير واضح وربما مفاجئ ولو مرة واحدة في طباع وشخصية لطفي، بحيث اتمكن من كسر تلك النمطية المرضية التي تصم شخصيات معظمها ذات طريق واحد.. الكريم كريم في كل الأحوال والظروف. الشجاع دائما كذلك لايجبن أبدا.. الجبان يظل كذلك حتى لو حملته أسراب النمل إلى جحورها، والبخيل يحمي نفسه طوال القصة ضد أي لحظة ضعف تجبره على التفكير في التصدق بمليم واحد لإنقاذ آلاف المحتاجين.

اهتديت إلى فكرة جيدة، بل أظنها رائعة ترضي جميع الأطراف.. أوحيت إليه أن يتخذ لأول مرة موقفا يبدو في

ظاهره إيجابيا، وهو أن يهمل زوجته، ومادامت قد خرجت بنفسها فإلى حيث ألقت.. إنه سلوك يبدو بالطبع متسقا مع طباعه الساكنة التى لاتميل للفعل، ومن ثم فهو لن يقدم على أى فعل من أى نوع، وإن كان فى نظرى المتواضع يعد فعلا بالقياس لهذه الشريحة الممثلة من الرجال.

أسعدنى جدا أنه ظل يرتق جوربه، ثم نهض يبحث عن مقص الأظافر وجلس على كرسيه المفضل قريبا من النافذة يقص الزائد من هذه الأظافر، ويتأمل كل إصبع فى أناة بعد القص، وقد بدا لى أكثر هدوءا من ذى قبل، كما بدا لى كأنه غدا شخصا مخليا من الأعصاب والقلب، بل لقد خلت عروقه أيضا من الدماء.

بلغت سعادتى مداها عندما لمحته يتجه ببطء شديد نحو غرفة النوم وكان السرير غير مرتب فلم يحفل. صعد إليه وسحب غطاء خفيفا إلى ما فوق رأسه.. فسرت هذا السلوك بأنه إمعان فى التجاهل، وسرعان ما انتهى إلىّ غطيطه. ها هو يقول لها- فيما أعتقد - فلتذهبى إلى الجحيم أيتها المارقة.

تنهدت إذ اطمأن قلبى على بطل قصتى وعلى نهايتها، وتأهبت لوضع نقطة النهاية.. لكننى عزمت على أن أتمهل قليلا للمراجعة الأخيرة وليكن ذلك فى المساء، وربما بعد يومين أو ثلاثة، مؤكدا أنها انتهت ولم تعد لى بها علاقة،

اللهم إلا الاطمئنان إلى سلامة اللغة وضبط علامات الترقيم واختيار العنوان.

بعد نحو ساعة، وبينما أنا أجلس فى شرفتى المطلة على شقته أرقب الشارع وحركة الناس، إذا به يخرج محاذرا كأنه يتمنى ألا يراه أحد. متخذا جهة اليمين التى تفضى فى نهاية الشارع إلى الميدان والمسجد الكبير وحديقة الأطفال. سقطت نظراتى على الساعة. تأكدت أن صلاة العصر فات أوانها.. تتبعته بعينى، فإذا به يتجاوز الميدان ويتجه يمينا إلى حيث لا أعلم.. وجدته يتوارى حتى لاتقع عليه عين زميله فى مرفق المطافئ أسرعت فى أعقابه. لحقت به يدخل دكان حميه راشد الإسكافى.

مضى يشكو زوجته، وأبوها يستمع إليه وفمه محشو بالمسامير.. يسحب المسمار بطرفى سبابته والإبهام.. يدسه فى جلد الحذاء ويدقه بمطرقته الحديدية.. المسمار تلو المسمار، ولما فرغ من المسامير وفرغ لطفى من شكواه الميتة، التى ألقاها هامسة متناثرة الألفاظ كأنه يتحدث فى حلم ضبابى، بينما يغرق فى نوم ثقيل، غمره الإسكافى بما لم يتوقع.

انطلق الإسكافى يدس فى قلب لطفى مسامير كلماته ويطرق بلسانه رأس الرجل، وبالمطرقة يدق نعل الحذاء المشتقق.. اللسان يضرب والمطرقة حتى استشعرت أن

الطرق على رأسي أنا، واضطررت لطرد الجميع من بؤرة اهتمامي، ولطفي هو السبب ومن ثم فلا أرى داعيا لمواصلة الحدب عليه أو رعاية مصالحه ودعمه بمشورتي.

ابتعدت عن الدكان وأنا أفكر في بطلي من جديد.. فقد حاول أن يرضيني ويبين لي قدرته على الفعل، وأن بإمكانه - وقت يشاء - تصحيح الأوضاع التي أسهمت أنا في تعقيدها.

تسمرت أمام محل عصير القصب وعيني على لطفي.. لمحته يقف كالتلميذ البليد منكس الرأس متهدل الذراعين مقوس الظهر.. يتسول بيديه عطف الإسكافي. تجرعت كوبا من العصير وكل حواسي مع لطفي.. فكرت أن أعود فأجره جرا إلى بيته لأحفظ ماء وجهه، وألحق بقايا كرامته التي دق حموه آخر مسمار في نعشها.

ها هو كالخرقة يرتمي في الشوارع والحارات، وأنا وراءه أشفق عليه كولدي، إلى أن توقف فجأة أمام دار منخفضة في حارة كئيبة.. الجدران حائلة الطلاء والباب أجرب.. والسقف أمام رأسي.

نقر على الباب نقرات لاتسمع.. كان الباب مواربا.. لم تبلغه أدنى حركة.. عاد ينقر نقرات حيية لايكاد الباب نفسه يحسها.. دفع الباب برقة.. أنَّ الباب أنينا عاليا كأنه يعلم أهل الدار بالقادم.. توقف عن دفعه وانتظر.. طلعت

عليه سيدة قمحية اللون.. سمينة، ذات شعر أشعث.. ابيض أكثره.. هاجمني أنفها الكبير.. مد يده ليسلم، فلم تسلم، استرد يده.. قالت له ويداها فوق رد فيها:

- ماذا تريد يا عرة الرجال؟

عندئذ أدركت أنها حماته.. كما لم يفتني ذلك التشابه الكبير بين وجهها الذى لا علاقة له بوجوه النساء ووجه الإسكافي وأحذية الإسكافي.

لم يتأثر لطفي مطلقا.. ملت عليه وقلت:

- أيعجبك ما قالته؟.. أتحاول أن تعمل عليَّ أنا رجلا وأنت كما قالت.

رد عليَّ ببروده التاريخي:

- لاتكن متسرعا.. الحموات كلهن كذلك.. فلا تقلق.

لولا أنني المؤلف - أو هكذا تصورت في لحظة من اللحظات - لألقيت عليه أى قلة أو ضربته بمنفضة أو شبشب على أم رأسه، وربما.. ربما.. كتمت غيظي وثقبت وجهه بنظرات نارية وهو يقف إلى جوار زير الماء القابع في الركن كزر بطاطا ضخم.. كان ثمة تشابه بينهما.

قلت له:

- هيا.. عد إلى البيت ولاتنس أن تخبط هذا الباب بشدة حتى لو تحطم كما فعلت زوجتك ببابك.

استدار نحوى وكانت حماته لاتزال تنهال عليه بسبابها

المقزع كأنها تفرغ فوق رأسه صفيحة ممتلئة بأسوأ الفضلات.
بدت لي رسما كاريكاتوريا أو صورة متضخمة لزوجها في المحل.

انفجر في وجهي قائلا:

- يا فؤاد يا قنديل.. أنت ديكتاتور.. غادر رأسي أرجوك.. أنت تفسد على حياتي.. أنا قادر على حل مشاكلي بطريقتي.. تعجبني طريقتي التي تعتبرها جبنا.. لست خروفا تجد متعتك في أن تجرجره وراءك كلما فرغت من العمل.. لن أسمح لك بالتدخل في حياتي أكثر من هذا.

خامرتني مشاعر متناقضة ودار رأسي لحظات.. كنت سعيدا بثورته ومستاء من نعتي بالديكتاتورية ومن اعتقاده أنني أتسلى به وأتحكم في حياته، وأنني أتدخل.. هذا غير صحيح.. أو ربما كان صحيحا إلى حد ما.. رغم ذلك فلم أستطع منع نفسي من المواجهة:

- الآن أصبحت رجلا صاحب كلمة، وأنا أول من تثور عليه، فلماذا لاتثور على من تهينك؟

تنهد ثم قال بحدة أقل:

- أعترف بأن البداية كانت لك.. لكن اسمع. عليك أن تلزم حدك.. سوف أتصرف على النحو الذي يروق لي.

تسلل الهدوء إلى روحي وتدريجيا تراجع غضبي، فقد قررت أن أفهم حالته بالضبط وألزم حدي فعلا كما طلب.. تحرك قلبي لأجله، فقد كان ابني بصورة ما.

قلت بمودة وصدق :

- اخرج إذن ودعهم يتحسرون على الفرصة التى وفرتها لهم بقدومك.

قال بثقة :

- اخرج أنت ودعنى.. أنا مهيأ تماما لظروفى.. لاتقلق.

لم أخرج ولكنى لم أعد أتفوه بكلمة.. مضيت أرقب رد فعله.. ترك السيدة البغيضة تطلق صيحاتها ولعناتها.. تتقلب ملامح وجهها مع صوتها.. يقفز الانف فى اتجاه الجبهة وقد يلتصق فجأة بالأذن، كأنه يتحرك فوق رولمان بلى.. الفم أكثر الاعضاء مرونة فى الفتح والانغلاق.. العينان متسعتان يطلقان الشرر.. الثديان الضخمان المتهدلان يشاركان فى المهزلة.. الأيدى الكثيرة تواصل التعبير بحماس عن كل ما يصرح به الفم.. أجهزة كثيرة تعمل وتهدد وتصدر أصواتا عجيبة.. تتعاون جميعا فى منظومة قذرة ومزعجة، لتصل إلى هدفها النهائى وهو أن هذا الرجل كارثة كبرى لحقت بابنتهم، وعار يلطخ ثياب وسمعة تلك العائلة الملكية المهيبة.

ظل صامتا، وظللت أرقبه.. بدا كأنه يستمتع بالهجوم المتوالى الذى كانت السيدة العجيبة تبدع فيه وتبتكر.

كيف استطعت أن أشكل هذا الرجل على هذا النحو، أم أنه كما قال لاينتمى إلىَّ على الأقل فى مرحلته الأخيرة.

جاء الأولاد واحدا بعد واحد . .سلموا عليه. دخلوا بين فخذيه . . هبط إليهم وعانقهم . . ظل محتفظا بهم فى صدره لحظات . . أعطى كل منهم خمسين قرشا . . انطلقوا لشراء الحلوى . . قعد الرضيع يصرخ محتجا بسبب عجزه عن الخروج وبسبب نذالة الآخرين .

بقى لطفى حتى العشاء . . صامتا منكس الرأس . . لم ينطق بحرف حتى بعد أن رجع متأخرا حموه، وهمهم ببعض الكلمات مستدرجا لطفى للتعليق . . نام على الأرض . . غطته حماته . . أفطر معهم فى الصباح . . كان كالبالونة التى فقدت كل ما فيها من هواء وقدرة على الحركة . . ذهب إلى عمله فى مرفق المطافئ. قضى وقتا طيبا مع زملائه حتى بدا لى أنه نسى المستنقع الذى ألقيته فيه. أعرف حبه للمرفق وعمله فيه حتى أنه لا يغادره إلا بعد الجميع . . دهشت إذ يتخلص بسهولة من النكد المستمر الذى تشعله زوجته كالحريق فى بيته. عاد مع أذان الظهر . . جلس ساكنا . . حدثته حماته بحدة معقولة . . كان يهز رأسه . . أكل معهم ما تيسر . . فى المساء نام على الأرض بينما كنت أنام إلى جانبه على الشوك حتى فكرت أن أقتله أو أجره جرا وأسحله على الطريق . . أمرغه فى حفر الشارع وأخبطه بالأرصفة . . فكرت أن أخلص منه القصة . . بدا الأمر كأنه خرج من يدى.

فى الصباح تناول فطورا خفيفا مغموسا فى الصمت . .

ذهب إلى المطافئ.. قضى مع الأسرة غالب يوم الجمعة.. بعد الغداء قالت حماته لابنتها:

- خذى زوجك وعودى إلى بيتك.

في صمت سحب زوجته وأولاده وعاد إلى بيته.. وجدنى في الشرفة كعادتى بعد العصر.

أخرج لسانه لى وهو يفتح الباب ويدفع أمامه أولاده ثم استدار وصفقه بشدة في وجهى.

٢٠٠١

أجمل رجل قبيح

بكل زهو دس السيجار فى فمه، وتأمل خاتمه الذهبى الضخم ومر بيده - غليظة الأصابع - على كرشه الكبير المستدير الذى تكلف عشرات الآلاف ليصبح بهذا الشكل المميز.

قبل أن يجنى رأسه باعتداد ليدخل سيارته محاطا برجال أمنه، تقدم بصعوبة أحد كبار المسئولين فى مجلس المدينة، وسلمه أوراقا معتمدة ومختومة.. تصفحها وابتسم.

قرر مكافأته على جهده لتمرير التكليفات المحظورة على الجميع.

أمر المحاسب بصرف رشوة مقدارها ثلاثون ألف جنيه.

ما أنجزه الموظف الحكومى يدر ثلاثة ملايين من الجنيهات.

تذكر أنه منذ أسبوعين على الأقل لم يعقد صفقة. تحركت السيارة بين أحواض الزهور التى تمتد أمام قصره حتى البوابة الحديدية لمسافة مائتى متر.. ابتسم. تأمل وجهه الضخم المتورد وشاربه الذهبى المبروم وعينيه الواسعتين. رضى عن المسحة الخضراء التى لازالت تلونهما.. سوى جناحى الشارب وهو يستعيد المقولات التى تتردد فى أجواء الأندية والأحزاب - س.س. أجمل رجل أعمال فى مصر تنفس بملء رئتيه الاعتزاز والنشوة والسلطة.. شعشعت الكبرياء فى رأسه وهو يستشعر امتداد أذرعه إلى كل مكان.. اليوم سيوقع عقد تعاون مع شركة أمريكية تعمل بموجبه مصانعه بالكامل طوال العام، وتحقق ربحا لايقل عن عشرين مليونا من الجنيهات سنويا.. هز رأسه موافقا على تغيير سيارات أولاده الثلاثة: رامى وشادى وكريم، حتى سهى التى لم تبلغ السادسة عشرة - من حقهم أن يغرقوا فى العز، هز رأسه موافقا على فتح شركة باسم الزوجة التى تود من كل قلبها أن يتضاعف ما تملكه.

- لا بأس.. إنها أم الأولاد ولابد أن تنشغل عن نزواتى، كما لايحب أن تحمل هما بالنسبة للمستقبل إذا حدث شىء، خاصة وأنها فى انزعاج دائم من إخوتى.

أشعل السيجار وسحب أنفاسا طويلة بتلذذ.. صبر عليها حتى بلغت رئتيه ثم أطلق الدخان باستمتاع. أخرج مع

الدخان بعض الذكريات المتعفنة والأيام المتكلسة، ونفايات المواقف الصغيرة واللحظات الحرجة، كأنه يقول: وداعا لكل السنين الصدئة.

تنهد وبدا واضحا رضاه عن الدنيا وعن نفسه.. وقال:

- غدا نمضى إلى الساحل الشمالى لنلهو بعيدا عن الأسرة. تكفى هيام ذات الجسد المشتعل «والفشة العايمة».. بنت الجنية لاتتوقف عن الضحك.. لامانع من تزيين رقبتها المرمرية بعقد الماس.. طلبته وتستحقه.

مد ساقيه إلى أقصى طولهما فى صالون السيارة الكبيرة، وتحسس شاربه الكثيف.. رن الهاتف.

قال حسين:

- خبر سخيف يا باشا

- انطق

- رامى بك دهس أسرة مكونة من سبعة أفراد كانوا يجلسون على كوبرى روض الفرج.

- ولماذا يجلسون هناك؟

- يتنفسون الهواء الذى لايدخل بيوتهم.

- كثرة النسل هى المشكلة وليس الهواء.

- العمل يا باشا؟

- تعرف العمل.. تصرف أولا فى المحضر، وارم لهم عدة آلاف.

استعاد آخر نكتة قالتها له هيام فى التليفون أمس.. ضحك طويلا.. لطالما أدهشته دماغها العجيبة. أنثى مثيرة ومجنونة تتفجر حيوية، حتى بعد أن يغلبها النوم لاتنهد. تتقلب وتتكلم وتعانق بالذراع والفخذ، وأحيانا تصدر صوتا كخوار البقر.. تضحك وقد تبكى.. تصحو فجأة لتسب وتلعن ثم تنام وتكمل موشح السب البلدى ثم تنتقل بعد الهدوء القليل إلى مرحلة الغطيط المنظم.

قال لها عندما التقيا:

- أمامك ليلة واحدة لأصبح على يديك إنسانا آخر.

- سوف أنسيك اسمك.

- لايكفى.

تأمل وجهه الأحمر الضخم فى المرآة قال لها:

- يقول الناس أنى أشبه الملك فاروق.

- أنت أكثر شبابا.

فعلت به ومعه كل شىء. كانت تدرك بحس المرأة أن عقد الألماس موجود.

أرهقته بلا شفقة، وأضحكته بلا رحمة، وأوسعته حبا وتدليلا حتى أوشك أن يتحلل.

مع ظهيرة اليوم التالى تناولا الغداء، جاءه السائق منكس الرأس:

- خبر سخيف يا باشا.

- حتى أنت!

- سهى حطمت كشكا فى شبرا.

- ما المشكلة؟

- كان به خمسة أولاد وأمهم.

- أصيبوا؟

- ماتوا.. كان ذلك في الثالثة قبل الفجر، والأولاد نيام.

- ارتاحوا وريحوا البلد.. ولماذا ناموا فى الكشك.. أولاد الـ..؟

- الفقر يا باشا..

- الفقر ليس عيبا.. الفقراء هم الأغبياء.. يخرجون لنا من لانتوقعهم.

- والعمل؟

- اتصل بحسين كي يتصرف.. يوقف المحضر ويرمى قرشين.

زفر الهواء بامتعاض..

أعاد إشعال السيجار.. قال:

- الندم غير مسموح له بالاقتراب منى.. الندم يقصف عمر العظمة.

مضى إلى المحافظ.. عرض مشروعه الكبير تناقشا طويلا بحضور المساعدين.. وافق المحافظ أخيرا.. انفتحت كل الأفواه ابتهاجا بالمشروع الذى سيغير وجه الحياة بالثغر قرية

سياحية وسط البحر على بعد مائة متر من الشاطئ. أصر المحافظ على الغداء شكره وانصرف.

عندما وصل إلى الشاليه طلب من السائق ألا يراه أبدا إلا إذا طلبه.

طلب من هيام أن تملأ البانيو بالعطور فسوف يقضيان فيه الليلة.. يشربان ويأكلان ويتلاثمان ويناماني وينتقمان من الحياة.

قهقه من أعماق قلبه ومن كل شرايينه عندما قالت:

- هذه الليلة مجانية. الدنيا كلها لك وحدك. افرد أجنحة شهواتك إلى أقصى قدرتك.. التهم وإياك أن تشبع.. التهم ولاتشبع.. فاهم.

قال وهو يعانقها بفرح مراهق:

- لن أشبع أبدا.. أبدا أيتها المنحدرة من سلالة جبارة.. هيا ألقيني في جحيمك اللذيذ.

طوته المرأة الجهنمية الهائجة قوية البنيان، وشملته بعواطف شهوتها المجتاحة.. أغرقته فيما لم تعرفه الغرائز من قبل، ولا خطر على بال أى شبق محموم.. ومن أعماقه شعر بأهمية الفجور وروعته.

مع ظهيرة اليوم التالي، أطلق سراح الهاتف المغلق.. اندفع الرنين متلهفا:

- خبر سخيف يا باشا.

زعق - يا أولاد الكلب.

واثقا.. لطمه المتحدث بالخبر، سقطت عمارتنا الوايلى.

- يااه.. خبر انتظرته من سنين.

- يا باشا.. العمارتان وقعتا فوق السكان.

- لك مكافأة.

أغلق الهاتف ليفرح مع هيام. عانقها وقبلها.. حكى لها القصة. اشترى منذ نحو عشرين عاما ثلاثة بيوت متجاورة قديمة فى حى الوايلى وتمنى أن تسقط فلم تتحق أمانيه.. سعى بكل الأساليب غير الشرعية للحصول على تصريح بهدم إحداها.. ليخرج منه السكان وأمر سائق البلدوزر بهدمه، ونفحه مائة جنيه زيادة كى يمنح البيتين الآخرين كتفين مؤثرين بشفرة البلدوزر.. أخيرا سقطتا.. مساحة كبيرة من الأرض تتجاوز الألفى متر، ثمنها لايقل عن عشرة ملايين.

- أنا بالفعل عبقرى.. لم تلد مثلى ولادة.. إننى أستحق مكافأة كبرى.

أسرعت هيام تقول:

- وشى حلو عليك.. من حقى مكافأة.

عانقها قائلا:

- لك مكافأة طبعا.

تحلل منها ومن الجدران.. مضى إلى الشرفة يفتح صدره للبحر.

- ليس أقل من سفرية إلى أوروبا تدوم شهرا.. هناك من يختلفن كثيرا عن هيام.

تنهد من أعماقه وتمنى أن ينزل إلى البحر ويحدثه عن صفقاته التي مازالت تختمر فى رأسه.

شعر أن قلبه يدق بعنف واضطر أن يميل على الأريكة المريحة في صدر الشاليه.. كان يتنفس بصعوبة ولم يستطع من خلال ضبابية النظرات أن يلمح هيام وهى تتقدم بجيوشها شبه عارية وعطرها يخترق كل ما يلقاه ويصرعه.

٢٠٠١

وحيدان

وحيدان.. نجلس معا في شرفتنا الفسيحة، نتأمل العصافير التي تتعانق فوق غصون الشجرة الكبيرة، تلفها وتقلبها نسمات الحب والمرح الجميل.

أمسك يد زوجتي الطرية المثقلة بالأيام والشجن.. تصطدم أناملي ببعض الخشونة في ظاهر يدها.. تسقط نظراتي عليها، فتتعثر في بقع الشيخوخة البنية التي تزداد كل يوم على جلدها وجلدي.

أهم بالنهوض.. تسألني عن السبب.. أقول

- سأحضر الجلسرين

لاتسمع.. تعيد سؤالها، فأعيد عبارتي، وأكملها

- يدي خشنة من الوضوء

تقول

- وأنا أيضا..

ولكنها تستطرد بعد لحظة

- ابق أنت وأحضره بدلا منك.. ركبك تؤلمك

أربت كتفها بحنان كي تبقى

- أنا من يجب أن يقوم

أصلب طولى بصعوبة.. جسدى ثقيل رغم نحولى وعظامى المفككة.. أجر الخطوات على بلاط الأرضية الذى يشبه قطع الشطرنج.. قدماى فى شبشب من قماش صوفى أخضر، والنعل جلد خفيف.. شرع النعل فى التآكل بسبب زحف أقدامى.. أمسك بيدى المرتعشة زجاجة الجلسرين، محاذراً ألا تفلت، فكم أفلت غيرها.

أعود إلى جلسة الشرفة حيث رفيقتى التى تجلس هناك وفى أحضانها حياتى.

أصب قطرات من السائل الشفاف الثقيل على ظاهر يدى اليسرى وأمر بظاهر يمناى عليه.. أدلك كل يدٍ بالأخرى أغسل كل الخشونة.. تمد زوجتى يدها الصغيرة الحنون.. أصب على ظاهر يدها من السائل الثقيل، تفعل به مثل ما فعلت.

أضع زجاجة الجلسرين على المنضدة الخيزران، وأرتاح فى الكرسى الخيزران مستمتعا بشمس الشتاء وأشعتها اللذيذة..

أتأمل مع أم شادى حركة العصافير واهتزاز الغصون الرفيعة التى تبادل العصافير المرح.. الطيور الصغيرة لاتكف عن الطيران والعناق واللهو والزقزقة التى لانكاد نسمعها.

تقول أم شادى فجأة وهى تحدق فى العصافير

- اشتقت إلى الأولاد

أتنهد وأتذكر أننى كنت أحسب إلى عهد قريب أن الأولاد عزوة.. يقول الأسلاف. عز الدنيا فى العيال.. فماذا جرى؟!.. العيال لاتسأل عنا.. كيف انتزعت قلوبهم التى كانت عليها أصابع الرب، وحشيت صدورهم بقلوب من الحجارة أو البلاستيك.

كلما جاء أحد منهم تهللت أم شادى، تكتشف بعد دقائق وقبلات باردة أنه جاء يسأل عن إحدى أوراقه القديمة.. صورة من شهادة ميلاد، أو الإعفاء من التجنيد.. آخر جاء الأسبوع الماضى، فأسرعت أمه تسأله عن أولاده ولماذا لم يحضرهم معه، فهم غذاؤها ورى قلبها.. تشاغل عنها بالحديث فى التليفون المحمول.. طلب مفتاح الدور الأرضى المغلق.. قرر أن يستخدمه كمخزن.. بعد لحظات عاد ليعلن سخطه على إهمالنا.. الحيطان مهترئة والمياه بارتفاع عدة سنتيمترات.. أسرع بالخروج راميا فى آذاننا وعدا بالعودة.

تقبع أم شادى فى شبه منفى.. تراجع بصرها أولا ثم سمعها.. المصيبة تكمن فى الذاكرة.. إذا لم يستطع الشخص أن يتذكر يوما من أيامه القديمة التى تراكمت فوقه

أيام كثيرة، فهذا يعنى أنه يستعد للرحيل.. ذاكرة أم شادى تشبه الآن غربالا لايستبقى شيئا.. كثيرا ما ترفع سماعة التليفون لاعتقادها أن جرسه رن طويلا.. فى كل مرة تتوقع أن يكون أحد الأحفاد.. تقول

- لعله كوكى ابن حنان.. أو هبة ابنة شادى

الصمت معنا دائما حتى داخل اجسادنا.. بل كأنه ينبع منها.. أحدق فى يدى التى يلتمع على ظاهرها الجلسرين والسائل لايستطيع أن يخفى التشققات والتجاعيد التى لاتكف عن حفر مساربها فى جلدى.

عندما تسافر بكل ملامحها بعيدا وتشرد.. أعرف السر.. أقول:

- الدنيا مشاغل يا هدية.

تلوح يدها ببطء أمام وجهها لتهش ذبابة، قائلة

- يمكن

قلت لها: ربنا يكون فى عونهم

جاءتنى الذبابة التى كانت تهشها. وقفت على أنفى، خشيت دفعها حتى لاتذهب وتقف على وجهها فتزعجها.. قلت

- سليمان. جارنا. تعيشى أنت

- كان ميتا من زمن

- الجيران عرفوا بموته من رائحته

لم نجد ما نقوله لدقائق.. قلت ويدى على فخذها

- ربنا يطول لنا فى عمرك

علت وجهها ابتسامة حزينة ورفعت عينيها إلى السماء وهى تقول

- يارب.. لاتسمع منه

دهشت

- يا حاجة.. ماذا تقولين؟

- يارب.. اجعل يومى قبل يومه

- بعد الشر عنك يا غالية

هبط السكوت علينا كالعادة.. لم نجد الكلام

بعد دقائق قلت:

- عندك حق.. أتمنى أن تموتى قبلى

- آه

- عارفة السر؟

هزت رأسها وشردت لحظة ثم قالت:

- كى تبقى سندا للأولاد.. مهما كبروا سيحتاجون إليك

- هذا لايهم..

- ما المهم؟

- ألا تقاسى من الحزن علىَّ

- وأنت.. ألن تحزن على؟!

- يارب اجعلها إذن تموت قبلى بيوم واحد

عاد الصمت يلفنا بكثافة، إلى أن قالت

- ما رأيك أن نموت معا ؟

ابتسمت بفرح ودهشت.. كيف لم أهتد إلى هذه الفكرة.. شغلني حزنها عليَّ إذا توفيت قبلها.. ربتت بيدها الطرية ركبتي وعادت للشرود. حلق في سمائنا الانتظار.. ماذا ننتظر ؟.. لاشيء ولا أحد سوف يأتي.. انا فقط اريدها دائما معي.. وكثيرا ما فكرت.. هل كان يمكن ان تكون لي رفيقة عمر غيرها ؟.. مستحيل.. لو كان معي غيرها لما عرفت سبيلا للسعادة.. فات الوقت على أية حال..

ملت عليها ومالت عليَّ.. احتضنت طيبتها وحنانها وأعضاءها الهشة.. تذكرت عشرتها ومئات الاسرار التي لازالت كذلك.. حاولت أن اتصور كم الأسرار التي بين كل الأزواج والزوجات المماثلين لنا في العمر.. تقطعت انفاس خيالي.. مضت حرارة الشمس تصهرنا معا في نسيج الابدية، وقد خامرنا شعور بأننا لسنا على الأرض.. لقد اختلطت الحياة بالموت.. ليس ثمة إحساس بجسدينا.. الوجود المهيمن كله للروح وملكوت الله العظيم..

غابت الدنيا والأولاد والشرفة ولم يبلغنا حتى لهو العصافير فوق الأغصان.. السكون يحط ويتغلغل.. وينعدم حتى الإحساس بالسكون.

١٩٩٨

تشريح

فى كل شارع تقريبا مثل هذه الأسرة، وربما فى كل عمارة. المهم، كان من الممكن أن يمر كل شيء بسلام، يسدل الستار على حياة الرجل فى هدوء، لكن ابنته فجرت المفاجأة.. قالت إنها تشك فى أن والدها مات موتة طبيعية.

لم ينطق كعادتهم أخوتها الثلاثة، لم يعبروا عن تأييدهم لشكها ولم يعترضوا عليه.

أكبر الذكور - وهو التالى لها - مط شفته السفلى، والثانى أحنى رأسه، أما الأصغر فقد تمتم بكلام غير مفهوم، ومضى إلى المطبخ يعد لنفسه شايا يشربه فى البلكونة مع سيجارة، يتأمل دخانها باستمتاع عاشق، هكذا تعود عندما يهبط الضباب على عقله ويغطى كل الأفكار.

الدخان يتلوى ويرسم بعض الملامح على صفحة الأفق، يحدق فيها طويلا، رغم أنها تكون قد تحللت، واختفى الدخان تماما من المشهد.

هذا الشقيق المدخن صديق الشاي والبلكونة، مدمن لهواية رابعة هي حرصه على مشاهدة ساكنة الشقة التي تقع في الدور الثالث بالعمارة المقابلة، يستطيع وهو في شقتهم بالدور الرابع التقاط بعض المشاهد اللذيذة من حياة الشابة الجميلة الحزينة، وهو حزين نسبيا لأجلها، ويكاد يفكر في أن يرتدي ثيابا سوداء مثلها لأنها لاتخرج إلا بها، وعندما تعود تتخفف من أكثرها.

فكر طويلا في وحدتها دون أن يضع خطة محددة تنقذها من الوحشة والبرد، وتوفر له قدرا من المؤانسة.

يتابعها وهي تأكل خيارة أو برتقالة، أو تقلم أظافرها أو تسرح شعرها الطويل، وهي نصف عارية، وبياض جسمها المنير يزيد تألقا مع قطع الملابس القليلة والصغيرة ذات اللون الأسود، الستائر البيضاء المخملية الشفيفة التي تنسدل في نعومة على النوافذ لاتمنع نظراته التي تثقبها من فرط تركيزه وتحديقه بكل ملكاته وخلاياه.

الحياة في نظره ليست غير سيجارة وامرأة نصف عارية يتأملها باستمتاع ويطلق العنان لخياله متصورا ملمس اللحم الملهم للشهوات.

الشقيق الثاني مدمن قراءة ويكتب مقالات كثيرة،

ويبعث بها إلى الصحف دون أن تنشر واحدة، لكنه يكتب ويرسل بحماس لايفتر، كأن المطابع تلاحقه.

بلا هواية ولا أفكار محددة، غارق دائما في الصمت والشرود.. لا أحد يعرف عنه أى شيء.. فى أغلب الأحوال تكون إجاباته هزات من رأسه أفقيا أو رأسيا.. وهو جزء مهم وعمود فقرى أساسى فى تشكيل منظومة الصمت الخرافى التى تشمل البيت الذى لا أثر فيه لصوت راديو أو مسجل أو تليفزيون.. كلها تعمل ولكن خلال سماعات مركبة على الأذان ونادرا ما يفتح التليفزيون.. لا أحد يحب أن يكسر زجاج الحالة، إلى أن حدث ما حدث.

الفتاة تكاد تصرخ فيهم للمرة المائة:

- ما رأيكم.. ماذا سنفعل؟.. انطقوا

أبونا مات بفعل فاعل.. تحركوا.

سألها الضابط بينما كانت تنتفض:

- هل تشكين فى أحد؟

- لا..

- إذن لماذا تتصورين أن موته جنائى وليس طبيعيا؟

- لأن من رأى جسمه قال إنه كان مائلا للزرقة.

- ألم يكن مريضا؟

- أبدا..

- حتى قبل وفاته؟

- كان وجهه محتقنا قليلا .

- ألم يشك من أى ألم ؟

- هو لا يشكو أبدا .

- أين أخواتك ؟

- بالداخل .

تذكر الضابط حوادث مماثلة نشرتها الصحف ، وأدرك خطورة إهمال البحث فيها ، فمعظم النار اندلعت من شرر صغير ، ولو تحت الرماد . . كانت الفتاة تواصل الكلام بلسانها وعينيها وحاجبيها ويديها وذراعيها .

دنا الضابط من الأخوة الذكور معبرا عن أسفه لأنه مضطر لسؤالهم ويعلم أن الوضع غير مناسب ، لكن شكوى الأخت لايمكن تجاهلها ، وأى بلاغ مهما كان بسيطا يجب أن يحصل على حقه فى البحث ، وفى كل الأحوال ، فالأمر مهم ويعنيكم ، وغرضنا جميعا كشف الحقائق .

لاذ أكبرهم بالصمت وبدأت يده اليمنى فى الارتعاد ، ثم دمعت عيناه ورفع رأسه عاليا فجفت الدموع . . تنهد تنهيدة طويلة . . كان كمن يجذب شيئا من أعماق أعماقه ليطلقه من أنفه ، لم يجب على سؤال الضابط إلا بهز رأسه ، أما الثانى فقد ظل يدخن ، ومع إلحاح الضابط هز كتفه علامة على عدم درايته بشىء . . سأل الثالث :

- هل توافق على تشريح جثة والدك ؟

انفرط فى البكاء ولم يستطع الضابط الحصول على أية

إجابة.. حرر محضرا بناء على بلاغ الابنة ودوّن أقوالها وسجل ما طرحه من أسئلة على الأخوة الثلاثة، وأملى على الكاتب وصفا لما بدر من كل منهم.. الذى بكى والذى تنهد ومط شفتيه، والذى دخن وهز كتفيه.

أشر وكيل النيابة بإعادة سؤال مفتش الصحة الذى حرر شهادة الوفاة واستدعاء خبير الطب الشرعى لفحص الجثة. قرر الطبيب أن هناك مساحات كبيرة من الزرقة تنتشر فى جسد المتوفى بدءا من الوجه والصدر والجنبين، وكذلك الظهر بالكامل، أى النصف الأعلى كله ما عدا الذراعين والحوض، فأصدر وكيل النيابة أوامره بالتشريح.

لاحظ الأطباء الذين قاموا بالتشريح أن الجسم كله طبيعى إلا أنه لايوجد له لسان.. طلب وكيل النيابة إعادة تشريح منطقة الحلق، والبحث عن أى علامات تدل على عمل جنائى يكشف عن مرتكبيه.. لم ينته الكشف إلى نتيجة محددة.

أعيد سؤال الابنة عن السر فى البلاغ، وعن أعداء الوالد وعن الأم، ومتى وكيف ماتت، والعلاقة بينهما، وممتلكات الأسرة وهل ثمة خلافات حول الميراث.

أجابت الابنة وأفاضت وتولدت أسئلة لاحصر لها من كلامها المتدفق ومعلوماتها التى تتبرع بتقديمها، أما الأخوة فكانوا صامتين، إلا إشارات صماء لا تفيد.

تأكد وكيل النيابة أن صمت الأخوة ينطوى على السر.

قالت الفتاة، إن والدها كان ينهض من النوم صارخا ومفزعا.. لم يكن صوته يخرج إلا وهو نائم، على شكل كلمات مهشمة، وغير مفهومة، ولم يتوقف عن القراءة والشاى والسجائر ويأكل الصحف، ويميل إلى المشى إذا ضاق بشىء، وإذا لم يمش ازرق وجهه.. تقول الابنة إن أباها لم يكن دائم الصمت إلا بعد زواجه بعدة سنوات.. كان مقبلا على الحياة حريصا على إبداء رأيه بصدق وجرأة.. تحكى لها أمها أنه كان لايكف عن الحديث وعن الضحك معهم ومع الجيران.. وتؤكد الفتاة التى لم تتزوج، حيوية والدها كما رأته فى طفولتها وفى عام ١٩٧٧ تم استدعاؤه إلى قسم الشرطة وغاب عدة أسابيع.. عاد بعدها هزيلا منكسرا لائذا بالصمت.. أحيانا كان يغضب لسبب ما، لكنه كان يضرب يده فى رأسه، أو يدق المنضدة أو يمتنع عن الطعام أو يخرج ليمشى ساعات، لكنه لم يتخلص من عادته الأثيرة.. قراءة الصحف ومشاهدة الأخبار حيث تتبدل ملامحه، وتتلون.

تعترف الفتاة أنها رفضت خُطّابا كثيرين من أجل إخوتها، ولاتدرى طعم وشكل الأيام المقبلة، ولا ماذا تفعل وهى تراهم فى حالة سكون شامل.. سكوت كامل.. تفكير عميق عبر عيون زائغة.

أمر وكيل النيابة بحفظ التحقيق مؤكدا أن الوفاة طبيعية جدا.

سُها والكلاب

-١-

ها هى صفحة روحك البيضاء الطاهرة تتجلى أمامى كشاشة الكومبيوتر تنبثق عليها كلمات، وتظهر رسوم وتتشكل ملامح، لم تكن لك ولا لأمثالك من الصبايا الصغيرات اللاتى قدر لهن أن يعشن فى مخيم بلاطة.. كم كنت تلفتين الأنظار بعينيك الواسعتين السوداوين ووجهك الأبيض الذى لم يعرف غير الابتسام.. يتوجه شعر فاحم، تتدلى منه خلف ظهرك ضفيرتان، تحتويان فى التفاف بارع وتعشيق جميل خصلات شعرك الكثيف.

خطوك الوئيد القصير الحنون لايزال يميزك عن كثير من قريناتك، حتى فساتينك الوردية التى تخيطها لك أمك ببراعة وببساطة، تصل إلى ما تحت ركبتيك، وهكذا يمكن لمن

يـراك حـتى مـرة واحـدة أن يعـرفك ، بـفـضـل تـمـاثـل أثـوابك وخـطواتك وتـسـريـحة شعـرك وإشـراقة وجـهك الـذى يـشع بـشـاشـة وطيبـة حتى فى ذلك الـيوم الـذى كـتبـت فيـه الأقدار عـلى صـدرك كـتـابـتـهـا ، وبـثت فـيك أسـرارهـا وحـفـرت فى طريقك ذلك الجدول المتدفق فى حماس نحو السلام والحرية .

لم يـكن ثـمة ما يـشـير إلى أنك يـا سـها ، يمـكن أن تـنـضـمى مبكـرا إلى قافـلة الرجـال . . ولـم تكـشـف الأحاديث الـطويـلة ، بينك وبـين عـروستك الـتى تـشبـهك تـمـامـا ، عن عـزمك أن يـكون لك أى دور فيـما يـجرى حولك ، بل كـثيرا مـا بدا الأمر كـأنه لايـعـنـيك . . فـمـاذا حـدث حـتى يـطـرأ عـلـيك هـذا التـغـيـر ؟ . . لقـد أتـيـحت لـى عـدة مـنـاسـبـات بـحـكم كـونـنـا جيـرانـا أن أدرك وأستـمتـع بـتـجـليـات الـطـفـولـة فى ملامحك وسـلوكك . . فـمـا أروع بـهـاء الـبـراءة الـذى تـضـفـيه عـيـنـاك على العالـم !

لـم تـغـارى من صـبـيـة الحى الـذين - بـعـيـنـيـك - تـريـنـهـم يـلـعـبـون مـخـتـلـف الألـعـاب ، ويمـارسـون كل أشـكـال الـشـقـاوة الـلـطـيـفـة والعـنـيـفـة . . يـقـفـزون قـفـزات عـالـيـة ، ويـركـضـون ويـتـضـاربـون بـالأيـدى والأقـدام . . ويـأكـلـون بـسـرعـة وشـراهـة ، ويـتـخـاطـفـون الأشـيـاء ويـتـقـاذفـون بـهـا . . ولـم تـغـارى لأنـهـم يـخـرجـون من بـيـوتـهـم فى أى وقـت ولـو جن الـلـيـل وغـطـت الظلمة كل شىء .

لم تغارى لأن الأولاد يرفعون أصواتهم ويصرخون ويصخبون ويضجون بالفكاهة والسخرية، ولم تغارى عندما تلمحين بعضهم يتسلق الأشجار كالسنجاب ويتنقل بين الأغصان كالقرد، ولم تغارى لأن الأولاد يبتعدون عن البيوت والمزارع، ويسرفون فى الابتعاد حتى يغيبوا عن كل العيون.

لم تغارى، ولكنك بالطبع كنت تأملين أن يتاح لك مثل ما يتاح للأولاد أو بعضه، وتدهشين لأن الأهل يصرون على منعك وزميلاتك من أن تأتى بعض ألعاب الأولاد، ويبالغون فى الخوف عليكن.. وهكذا فيما أحسب لم تتحول مراقبتك للصبية فى الحى إلى ما يهدد نفسيتك الطيبة، ولم تتبلور العقد داخلها لتحرمك النوم وتزعجك فى اليقظة.. بدت حياة الصبية وانطلاقهم أمرا طبيعيا، وقد صرحت فى أكثر من مرة بأن أكثر هذه الألعاب لايروقك ولايجذبك، بصرف النظر عن الضجيج الزائد الذى يثيره الأولاد حول ما يتبادلونه من ألعاب هى فى الأغلب شقاوة لاتحقق متعة حقيقية.

لكنك لن تنكرى أبدا أنك أصبحت تغارين جدا من الأولاد لأنهم يستطيعون أن يواجهوا الدبابات الإسرائيلية، ويقذفوا الأحجار على جنودهم، ويشعلون الحرائق فى إطارات السيارات ويدفعونها فتجرى متدحرجة ومتلهفة فى اتجاه سيارات الجيب التى يركبونها، ولايهابون الجنود وهم

يطلقون عليهم القنابل المسيلة للدموع وقنابل الدخان والرصاص المطاطي..

لن تنكرى لأنك قلت ذلك لوالدتك التي صرحت به لزوجتي.. لقد استحوذ ناصر على إعجابك عندما تماسك بشدة وقاوم الدمع بعد وفاة أبيه برصاص الأوغاد، وأسرع يلقي بالحجر تلو الحجر على الصهاينة ويصرخ فيهم من قلب قلبه:

- يا كلاب.

مع كل حجر يصرخ فيهم:

- يا كلاب.

يقبض بشفتيه على الشتمة ويقبض بيده على الحجر ويطلقهما معا. وفي مرة أصاب وجه جندى، فأسرع الجندى المحمل بالسلاح، والقنابل تلتف حول وسطه، يركض وراءه عبر الشوارع دون أن يفلح في الإمساك به.

وقد بكيت يا سها كثيرا لوفاة أخيك، وعندما رأيت الجنود المسلحين يعترضون الطريق أمام أمك ويدفعونها بقسوة أوقعتها على الأرض، ونهضت بسرعة وصرخت فيهم وهى تسألهم: لماذا تمنعونها أن تشترى الزيت من محل سليم؟ ولماذا أقمتم تلك الحواجز وسط المنطقة؟

دفعوها من جديد حتى سقطت دون أن تستطيع النهوض.. وانكفأت عليها، تمرغين في صدرها وجهك

وتنهمر عليها دموعك الساخنة. وبعد قليل نهضت أمك.. وأسرعت تنفضين عن ثوبها التراب وتنظرين بحقد وغضب تجاه الجنود الذين بدوا لك في هيئة شياطين سود مرعبين، عيونهم حمراء وأظافرهم وأنيابهم طويلة، وأفواههم واسعة تشبه كهوفا مظلمة.. عندئذ وصل خالك يركض من بعيد.

زعق في وجه الجندي قائلا:

- لماذا تعتدي على امرأة يا جبان؟

انقض عليه الجندي بمؤخرة المدفع فدفعه في صدره بقوة، لعلها آلمت خالك، لأنه لكم الجندي في صدره، وعاود الجندي ضرب خالك بمؤخرة المدفع بشراسة، ولحسن الحظ تلقاها خالك بجانب ساعده وأزاح عنه الجندي، وسرعان ما لكمه في وجهه وهو يقول:

- أنتم لا تعرفون الرحمة.. من أين جئتم إلينا يا حثالة العالم؟

عندئذ أطلق عليه جندي آخر دفعة من النيران، صرخت أمك، وولولت ثم سقطت على جسد مريد زين شباب المخيم، ولحقت يا سها بأمك تمرغان وجهيكما في قميص من أغرقته الدماء.

انشقت الأرض فجأة عن أكثر من عشرين ولداً في مثل سنك، انهالوا بالحجارة على الجنود الذين أدركوا صعوبة الموقف واحتمال أن يسوء أكثر، فأسرعوا إلى السيارات

العسكرية التي انطلقت بعيدا مخلفة وراءها سماء حزينة، وقلوبا مكلومة وتلالا من الغضب أخذت تعلو وتعلو.

تجمع الشباب وحملوا خالك مريد المراق دمه والذى أسلم الروح في لحظات، وهو يقبض بقوة على كل يد امتدت له.. كان جسده المنتفض يستغيث ويتشبث بالأهل الذين رفضوا تصور أنه مات..

كنت يا سها تمضين خلف الموكب التعس تذرفين دموعا غزيرة حتى وصلوا إلى المنزل ودخلوا جميعا، إلا أنت.. توقفت قدمك اليمنى فوق العتبة الأسمنتية.. وتوقفت دموعك فجأة.. حاولت الدخول فلم تجدى قدرة على ذلك ولا رغبة.. كان ثمة شعور غريب يدعوك ألا تدخلى.. كنت غاضبة جدا وكأنك حرصت على ألا ينهار جبل الغضب بداخلك.. ولعلك كنت تفكرين في وسيلة للرد على هذا العدوان.. ولعلك كنت تتذكرين خالك الشهم الكريم الذى كان يمر بكم كل يوم ويسأل عنكم ولايؤخر طلبا لكم.. ويغطيكم بخيمة حنانه وحضن قلبه الطيب.. من منا لايحب مريد؟.. من منا لايعجب بمريد؟.. رحمة الله عليه.

كنت غائبة عن الوعى.. ليس تماما.. لأنك لم تشعرى بأى شيء، ولم تبلغ مسامعك الجلبة التى كانت بالداخل.. فقد كانوا يحاولون إنقاذ خالك بكل الوسائل، وأنت على العتبة فى حالة ذهول وشرود.

-٢-

عبأت رئتيها بالهواء وأطلقته في تنهيدة حارة وطويلة. استدارت كالمنومة وبدأت تسير بحذاء الجدران سيرا مجهولا وبلا هدف، تدفعها من أعماقها إرادة غامضة وعزم شاحب.. ظلت تسير وتسير حتى تجاوزت المباني والأرصفة والمتاجر والنواصي، وكل الإشارات حتى بلغت أرضا ترابية. يمتد أمامها الخلاء، ولولا الجموع التي تسبقها لشعرت بالخوف والرهبة.

شملها إحساس ضبابي شفيف كأنه الحلم بأنها تمشي في ركاب أهل الحي وأن السائرين عدد كبير، يتقدمهم الرجال والشباب، بينما كانت تسير مع الأطفال وخلف النساء دون أن تعرف الغاية والنهاية.. وعليها أن تسير كما الجميع في حماس ولكن في صمت.

رأت الأشجار أيضا تسير.. ببطء ولكن بانتظام.

شرع عقلها يستعيد مشاهد الصباح، الأولاد يلقون الحجارة على الكلاب التي تحمل المدافع وتطلق.. تصورت أن رؤساءهم لابد قد انتزعوا قلوبهم وعقولهم، وأنهم يتحركون بالأزرار والأجهزة.. مجرد آلات تهاجم الناس دون أي سبب وبلا أي حق.

بعد قليل اكتشفت أنها تسير وحدها وأمامها منطقة مكشوفة جرفت البلدوزرات أرضها، وسحقت كل أشجارها،

انطرح الزيتون على الأرض. تحطمت خمائل الكروم، دمرت تماما حقول الخضراوات التى كانت ذات ألوان بهية وثمار كثيفة تزدهر بها الأرض الخصيبة.. مساكين أصحابها.. يبدو أنهم لم يعلموا بما جرى للزرع.. ضاعت عليهم كل أرزاقهم.. تبدد جهدهم وعرق شهور طويلة سال على التربة وسقاها..

استشعرت سها حرارة الشمس، تلفتت يمنة ويسرة.. المدى خال والفراغ موحش.. ما زالت تسير.. لاتحس بالجوع ولا القلق، ثمة ما يغريها بالمسير.. أخيرا تسللت إليها الرغبة فى أن ترتاح قليلا ثم تواصل السير.. لحت شجرة زيتون كبيرة لم تسقط، هناك فى عمق الجهة اليسرى من طريقها المجهول.. انحرفت.. مرت بصعوبة بين الكرنب المهروس والطماطم «المفعوصة» ونباتات أخرى لم تعرفها كانت أيضا ممزقة بقسوة شديدة صدرت عن قلب لايعرف الرحمة، ولم تأخذه شفقة حتى بالنبات البرىء.. ارتمت تحت الشجرة.. مسحت بنظراتها كل المنطقة، فلم تر أحدا.. لم يكن غير تلال عالية يصعد إليها الطريق الذى كان عليها أن تكمله حتى تصل إلى أقرب قرية مجاورة.. شعرت بالظمأ، لكنها تذرعت بالصبر حتى ترتاح، وما لبثت أن راحت فى نوم عميق.

استيقظت بعد نحو نصف ساعة على زمجرة عدة سيارات تصعد التل، وسرعان ما تغيب بعده.. لم يطرق باب قلبها الخوف.. هبت واقفة.. قررت أن تسير خلال المزارع لتلتقط

بعض ما يصلح طعاما.. مضت تنقل خطواتها على الأرض المحروثة والمقلوبة.. عثرت على خيارة وثمرة من الطماطم وتناولت بعض أوراق الكرنب.

صعدت التل ورأت عن بعد مباني من دور واحد تشبه العنابر حولها ساحة فسيحة، يعلو أحد المباني صارى يحمل العلم الأبيض في قلبه نجمة سداسية زرقاء.. رأت عددا من الدبابات تحيط بالمبنى وحول الجميع أسوار شائكة كثيرة وكثيفة، تلتف في ثلاثة مستويات إلا عند البوابة.

بالساحة سيارات نقل عسكرية وبلدوزرات وجنود في حركة نشطة.

تراجعت بضع خطوات وانبطحت على الأرض تتأمل ما يجرى.. جاهدت كي تعرف ماذا في هذه المبانى!.. هل هى مجرد مساكن أو مكاتب، ولماذا الدبابات والأسلاك الشائكة والأسلحة والحراسة المشددة؟.. هي بالقطع ليست مستوطنات كالتي يجلبون لها اليهود من كل انحاء العالم.

رأت الجنود ينقلون صناديق صفراء من سيارات نقل كبيرة إلى أحد العنابر الزرقاء.. حطت وجهها على الرمل.. وتساءل عما بهذه الصناديق.. سمحت للرمل أن يلتصق بوجهها وشفتيها، كتمت أنفاسها حتى لاتثير الرمال.. بقيت على حالها لحظات، ثم هبت واقفة تنفض عن ثوبها ووجهها ذرات الرمال التى بدت كأنها التصقت ببشرتها وأهدابها.

-٣-

ألا يوجد من يرد هؤلاء الجنود عنا؟ ولماذا هم في أرضنا؟ ولماذا يواصلون الاعتداء علينا؟.. وما السبيل لطردهم؟.. وكيف نخرجهم منها وليس عندنا مثل ما عندهم من جيش وعتاد وطائرات؟.. وإذا لم نستطع أن ندفعهم بعيدا عن أرضنا فإلى متى يستمر هذا؟ وكيف ستكون حياتنا ونحن نرى الشهداء في كل يوم يسقطون؟ ويصاب الرجال والأطفال وتضرب النساء وتنسف البيوت وتهشم العربات وتغلق المدارس والمتاجر وتقام الحواجز، ويمنعوننا من المرور وزيارة بعضنا بعضا.. كابوس طويل وثقيل.. أكاد لا أفهم تماما السر في كل مايحدث.

على الآن أن أعود.. أعود بسرعة.. ويجب أن أعرف الطريق وأعلمه بعلامات، مثل هذا التل وذلك السور المتهدم.. وهذا العمود المائل على جنبه.. الشمس تشتد حرارتها والطريق مكشوف.. لا أثر للظل فيه.. على أن أعود بسرعة.. سأذهب إلى عمى مباشرة.. نعم.. يجب أن أحكى له كل ما رأيت وأصف له المعسكر والجنود والطريق إليهم، لابد أنه سيفيد من هذه المعلومات.. قلبى يكاد يتوقف.. لم أركض يوما مثل ما ركضت اليوم.. ها هو بيت عمى.. لماذا هو مغلق بهذه الصورة؟! هل هذا يعنى أنهم جميعا ليسوا بالبيت؟.. سأذهب إلى عم حافظ صديق عمى..

أرضاني البريق الذى بدأ في عيني عم حافظ بعد أن قصصت عليه ما رأيته، قال:

- شكرا يا سها.. هيا عودى إلى بيتك حتى لا تقلق أمك.

- أود يا عم حافظ أن أعرف ماذا ستفعل؟

- خيرا إن شاء الله.

- أريد أن أعرف.

- لن أفعل شيئا يا سها.

- كيف؟.. أليس فيما أخبرتك ما يفيد؟

- سيفيد.. اطمئنى.

- إذن.. قل. لى.

- يا سها يا ابنتى.. كل إنسان عليه دور، ولقد قمت بدورك خير قيام.

- أتمنى أن أكون معكم.

- عمك صاحب الرأى.. اذهبى الآن وحاذرى أن تنطقى بحرف لمخلوق حتى لأمك، واعلمى أن كلمة واحدة ستقتلنا جميعا.

تركت عمى وأنا أشعر أنى كبيرة وأنى أطير، وأن لى نفع.. حاولت أن أتصور ماذا يمكن أن يفعل الرجال.. لابد أنهم سيهاجمون هذه المبانى.. ما أروع أن يسهم الإنسان مهما كان صغيرا فى عمل كبير من أجل الناس جميعا.

بعد يومين فقط اقتحمت المخيم عشرات الدبابات الإسرائيلية والسيارات العسكرية التى تحمل جنودا كثيرين، بينما الطائرات تزمجر فى السماء وتطلق النار على كل بيت وكل مدرسة ومسجد وكنيسة.

استطاع بعض الشباب المدربين تفجير ثلاث دبابات وقتلوا أربعة جنود وأسروا عشرة، لم يقبلوا تسليمهم إلا بعد أن تعهد الكلاب بمغادرة المخيم.

الغريب أن الخسائر التى منى بها المخيم وأرواح الشباب التى أهدرت والبيوت التى دمرت لم يحزن لها قلبى.. لقد كنت فى عالم آخر من السعادة لأننى أبلغت عن المعسكر الذى يخبىء فيه الكلاب أسلحة يقتلوننا بها، وكان واضحا غيظهم وغضبهم.. من حقى أن أفخر أنى فى هذه السن شاركت فى مقاومة المغتصبين، ولن يمنعنى شىء أبدا عن المشاركة فى عمليات أكبر.. أكبر.

١٩٩٨

حدث في البيرة

عشر دبابات اصطفت أمام بيتي واحتلت الميدان.. ديناصورات حديدية ضخمة تلقي الرعب بمنظرها البشع وخطرها الداهم الذى لاينبع فقط من قدرتها على التدمير ولكن من حماقة جنودها ووحشيتهم وغباء رؤسائهم وتدني أحاسيسهم بصورة عجيبة لم نقرأ أو نسمع عما يماثلها.

كان الجميع قد أسرعوا بالاختباء، فور انتشار الخبر بأن العدو يتقدم بآلته العسكرية لاقتحام حي البيرة. اندفع التجار يغلقون محالهم، بينما تهرع النسوة لالتقاط ما يستطعن الحصول عليه من المؤونة التي يتوقعن الاحتياج إليها تحسبا لطول مدة إقامة المحتلين. وهكذا توارى الكل خلف الأبواب الموصدة وامتنعوا عن الهمس، لكن العيون

كالكشافات مفتوحة ترقب من خلف الستائر وخصاص النوافذ ما يجرى.

اتصل بى أخي محذرا من الخروج إلى الشرفة أو الاقتراب من النافذة مؤكدا على أهمية ألا تغفل عينى لحظة عن الأولاد، فالجنود الإسرائيليون فى حماية الدبابات وما يحملون من أسلحة جاهزة للإطلاق يطوفون الشوارع، تدور عيونهم بحثا عن فريسة للتلذذ بإنهاء حياتها.

لم يجد أحدهم فى الدقائق الأولى من يطلق عليه الرصاص. لمح قطة تقطع الطريق بسرعة غير طبيعية، فقد كانت تعلم علم اليقين أنها معرضة للخطر طالما ظهر فى المنطقة هؤلاء الأوغاد، وكانت أقدامها الصغيرة تصطدم ببعضها فى اضطراب بين.. جندلها بعدة طلقات من مدفعه الرشاش فى مشهد مفجع للغاية.

قطة جميلة رمادية على جبينها وبطنها بقعتان بيضاوان، عيونها سوداء وكذلك أقدامها.. رأيتها عدة مرات وزارتنا مرة فطردتها برقة لأنى لا أحب القطط.. قاومت كثيرا رغبة ولدى فى أن يقتنى قطة فى البيت، شجعه أبوه قبل رحيله، لكنى قاومت حتى اقتلعت الفكرة.. كان مشهدا سيئا جدا، طعننى بشدة كأن القطة كانت طفلا أو شابا أو رجلا من أهلي.. وعندما لاحظت أنى أوشك على البكاء عانقت ابنتى آية ودفنت فى حضنها وجهي.. كان السلوك الذى أقدم عليه الجندى يتناسب مع تربيته وطبيعة دولته وفكر قيادته.

أصابنى الجزع فترة، لكننى روضت نفسى على انتزاعها من الصدمات بسرعة، فالوقت لايسمح بالألم وتأمل سلوكيات هؤلاء المرضى، وهم لايعطوننا فرصة حتى لدفن شهدائنا، ناهيك عن الفرصة للبكاء عليهم.

جاءت المروحيات تهدر فوق رؤوسنا وتهدد، تحوم وترصد.. يتوقع الجميع ضرباتها المفاجئة، صواريخها تصطاد المساجد والكنائس ومحطات الكهرباء وخزانات الماء والمدارس والمخابز، وما رأيته فى ذلك اليوم لم يسبق أن رأيته حتى فى أسوأ الأفلام السينمائية الجهنمية.. مروحية حومت وطافت، وفجأة أطلقت صواريخها على المخيم القريب منا.. بدا واضحا أنها غير راضية عما ترتكبه الدبابات، فالموت الذى تبثه هش وضعيف ولايقتل ما يكفى من البشر، ولايجتث البيوت من أساسها ولايحقق الدمار المطلوب.

ابتعدت المروحية بعد أن قدمت أكبر قدر من القرابين لإله الشر حتى يرضى عنها وعمن أصدر لها الأوامر. عادت بعد دقائق لتطوف بالحى، ولما رأت سيارات الإسعاف تهرع إلى المخيم المحترق والمهدم الذى تعج أرضه بالجثث وفضاؤه بالصراخ أطلقت صواريخها على السيارات حتى لاتضمد جرحا أو تنقل مصابا، أو حتى تحمل الجثث بعيدا.

تحويل مدينة جميلة إلى ركام وخرائب مسألة فى عرف الصهاينة يسيرة للغاية لاتختلف عن متعة مضغ اللبان. ما هذا الذى يجرى لنا؟!!

كانت القدور تغلي تود لو تغادر الصدور.. الصمت أصبح أمرا صعبا. ومحاولات ضبط النفس باءت بالفشل. شرع الشباب من مواقعهم يطلقون النار على من يقترب من الجنود، الذين انتقلوا إلى مرحلة تالية من الهجوم، فقد تجمعوا فى قطعان تقتحم البنايات العالية، يطرقون أبواب الشقق بصلف وشراسة، وعندما يفتح أصحاب الشقة يدفعونهم بالسناكى وبمؤخرات المدافع، يجمعونهم فى حجرة ويقومون بتفتيشهم، ثم يأمرونهم بمغادرة الشقة وصعود السلالم إلى الشقة الأخيرة.. وهكذا يجمعون سكان كل البناية فى شقة واحدة.

هذا ما فعلوه أيضا فى البناية التى تواجهنا وتقع بعد مبنى البلدية وجامع العين.

كانت النسوة تحاول تهدئة الجنود والوعد بالامتثال، والرجال يثورون ويدفعونهم ويسبونهم، لكن النسوة تسرع بجمع الأطفال وتتقدم الصفوف حتى لايغضب الجنود المستعدين لإطلاق النار بسبب وبدون سبب.

فى شقة واحدة من البناية تجمع أكثر من خمسين فردا بعد أن قطعوا أسلاك هاتفها وصادروا كل الهواتف النقالة.. وأخذوا ما فى الشقق من ممتلكات ثمينة ونقود.. فتحوا الدواليب.. كسروا الأدراج المغلقة.. حطموا حصالات الأطفال وألعابهم.. سرقوا كل ما فيها.. خلعوا اللوحات

المعلقة وحطموها.. حملوا ما وجدوه من أطعمة وفواكه وعصائر وكل ما يلزم بقاءهم عدة أيام فوق السطوح، وتفرغوا لعمليات القنص. وقف جندى وسط الساحة التى تبتعد عن بيتنا الصغير نحو خمسين مترا وأخذ ينادى:

- على كل المواطنين من ١٥ سنة إلى ٥٠ سنة أن يسلموا أنفسهم.

سقط قلبى فى ساقى.. ولدى أمجد يبلغ السادسة عشرة.. أسندت رأسى إلى الجدار.. لن أسمح لهم بأن يأخذوه.. لن أسمح لهم أن يمسوه.

بصوته المعدنى الذى يشرخ الأذان ويطعن الأرواح بعد أن رفع صوته قليلا وقرب من فمه الميكروفون قال الجندى:

- أكرر.. على كل المواطنين من سن ١٥ إلى ٥٠ سنة أن يخرجوا ويسلموا أنفسهم إلينا.. حتى لايتعرضوا للعقاب.

ثم أوضح

- كل المواطنين من الرجال

استشهد زوجى منذ أربعة أشهر.. أمجد هو أكبر أبنائى، وهو الآن رجلى.. كيف أتركه لهم وأبقى مع البنتين.. فات وقت الرحيل إلى أهلنا فى طولكرم.. وكل الأهل تقريبا فى مخيمات، ومعاناتهم أكبر ومشاكلهم لاتقتصر على التعرض للقتل والاعتقال والتعذيب والتهديد والإذلال وسوء المعاملة، لكن أكثرهم يعيشون حياة تفتقر إلى الكثير جدا مما يلزم البشر.

أمر يثير العجب إلى نهاية العمر ، بل إلى نهاية الحياة على الأرض. . انتقل اليهود من كل أنحاء العالم وطردونا من بيوتنا واستقروا فى أراضينا ونحن فى المخيمات لا نشرب المياه النقية إلا فى النادر ، وها نحن بلا مياه ولا كهرباء ولا غاز ولا حركة ولا طعام ولا مدارس ولا حياة ولا حرية ولا سلام. . نحن مهددون في كل لحظة بجبروت وغدر وعدوان متواصل لايتوقف. . ممن؟ من الذين أخذوا أرضنا وتاريخنا ، وسرقوا تراثنا ، ودهسوا كل ما نملك وخربوا كل ما بنيناه ، وها نحن لانستطيع الدفاع عن ابنائنا. . لا نستطيع أن نوفر لهم أقل مستوى من الحياة.

خرج بعض الرجال من كبار السن ، وخرج قلة من الشباب. . أمروهم أن يقفوا جنبا إلى جنب ، أيديهم خلف رؤوسهم ووجوههم إلى الحيطان. . انبطحت سماء على السرير وفي يدها قلم وبعض الأوراق البيضاء.

بعد نصف ساعة تجمع عدد من الجنود واتجهوا إلى البنايات وأخرجوا الرجال والشباب ومن رفض أن يفتح بابه ، حطموا الأبواب وهشموا كل شيء وتركوا الشقق حطاما وركاما. . هذا كثير وصعب تحمله.

دق قلبي بعنف. . ساورني القلق وشملني الرعب تماما. . ألتقط أنفاسي بصعوبة. . أيقنت بشكل مأساوى أنهم لن يغفلوا عنا كثيرا وسوف يأتي دورنا. . ويحين موعد تحطيم بابنا الضعيف.

طلبت من ولدى أن يستعد حتى لا يأخذوه بالبيجاما، فالطقس بارد جدا. وضعت فى جيبه بعض النقود وشريطين من دواء الانفلونزا والمعدة، فكثيرا ما كان يصاب بتقلصات فى معدته إذا خاف أو غضب.

الرصاص يتواصل والقصف المدفعي يسقط الشرفات والنوافذ، ويحطم كل ما يسقط عليه.. حالة من الجنون أصابت الجنود.

جاءت سيارة كبيرة وأمر الجنود عددا من الرجال بالصعود إليها.. مضت وجاءت أخرى فحملت العشرات فى صندوقها.. أطلق الجنود النار على ظهور الباقين.. هذا بشع يا ناس.. بشع. سلوك غير مفهوم وغير مبرر.

سقطت فوق ولدى وهو ممدد على السرير مفزع النظرات، أعانقه وأتشبث به.. وتشبثت به أختاه.

فجأة اختفى الجنود من المشهد، نهضت بسرعة لأعد فطورا للأولاد.. لم أجد خبزا.. مشكلة.. المخبز أطاحت به دانة دبابة.. كيف سنتناول قطعة الجبن وحبات المطاطم القليلة.

الوحيدة التى تخبز هى جارتنا أم ياسر.. كيف أطلب إليها أن تقرضنا بعض الأرغفة.. لن يخرج أحد من أولادى.. لن أسمح بذلك حتى لو متنا من الجوع.

لمحت الورق الأبيض وقد رسمت فيه سماء غزالة تجرى

ورأسها مقطوعة. نفس الصورة رسمتها عدة مرات ونقاط الدم تملأ الصفحة.

بيتنا من دورين، وبيتها من دور واحد. صعدت إلى سطحنا وأخذت ألقى على فتحة السلم عندها بعض الحصيات، حتى صعدت لترى ماذا يجرى.. ابنتها الكبرى التى اعتقل زوجها وجاءت بأولادها للعيش مع أمها.

قلت لها بصوت تسمعه بالكاد.

- نريد بعض الخبز

أشارت إلى عينيها

الصنابير لاتنطق ببنت نقطة مياه.. أنبوبة الغاز فارغة منذ الليلة قبل الفائتة وعجزت أن تكمل غلى الشاى.. قلبتها على كل الأوجه.. لم نشرب الشاى الذى كنا نأمل أن يكون بديلا عن العشاء.

الدبابات لاتزال أمام أبوابنا ونحن لانتحرك.. لم أتحمس لترتيب الأسرة.. صعدت إلى السطح وألقيت الحصى على أم ياسر، وأدليت لها من فوق السطح حبلا فى نهايته سلة.. طلعت حنان ووضعت الخبز فيها.

كانت ثمة ريح تهب من الغرب محملة بذرات غبار.. اختنق الهواء.. هاجمتنى الريح وهاجمت السلة.

دعوت الأولاد للطعام.. احتاجت أول لقمة فى أفواهنا إلى عشر دقائق حتى مضغناها، ولم نستطع أن نمضغ

الثانية.. توقفنا جميعا في وقت واحد، وتفرقنا في صمت..
رحنا في أسى نراقب ما يجرى، لم يكن اليوم مختلفا عن
الأمس إلا في أنه أسوأ، وليس في السماء غير غيوم، وليس
في الأفق يد تعتزم أن تمتد إلينا.

جلست على حافة السرير أرقب من خلف الشيش المغلق
جامع العين ومبنى البلدية والمحال الكثيرة المغلقة.. هالني
شكل المدينة التي كانت تضج بالحركة وتتعالى كلمات
السلام وعبارات المحبة.. أصوات الساهرين في مقهى
الزغبى.. عمليات البيع والشراء.. الخضراوات النضرة تزين
عربات الباعة الجائلين.. المحلات تتبارى في عرض بضائعها
من الملابس والألعاب والكتب والفواكه واللحوم والأدوات
الصحية والنجف والآلات الموسيقية وآلات التصوير
والأجهزة الكهربية والعصائر واللب والسوداني والعطارة
والأحذية والأدوية.

كل ذلك مدفون خلف الأبواب الموصدة واختفت عصافير
البهجة تماما من كل الشوارع والقلوب. كانت الدعابات تطير
وتسقط على ساحات الأرواح فتدغدغها، وتتعالى الضحكات
وتتردد في الحارات أصداء حيوية الشباب وركضهم، والأغاني
من أجهزة الراديو في البيوت والمقاهي تؤنس الأيام المتسارعة..
أم كلثوم وفيروز تشاركنا سهراتنا حتى الفجر، ينافسهما
عبدالحليم والغزالي.. نجاة وشادية، طلال وعبده.

تمثل سينما أبوعلى البرغوثى.. بؤرة حركة وضجيج..
كانت تعرض أفلاما لفاتن وسعاد ودريد وصباح وفريد..
حياة خصبة تموج بها الشوارع وخاصة منطقتنا العامرة..
التى تتحول فى حالات كثيرة إلى أسرة واحدة تجمعها مشاعر
المودة والكرم..انسجام وتداخل.. روح واحدة موزعة على
أجساد البشر.. من منا لايحب البيرة.. من منا لايفخر أنه
من رام الله؟ فماذا فعل الصهاينة بنا؟

رائحة حريق ونهنهات نحيب تصدر عن الأشجار المصطفة
تحت بيوتنا بطول الشارع الممتد حتى التلال الشرقية.. كان
علىَّ الآن أن أكون فى صحبة الأولاد الصغار وهم يخرجون
إلى المدارس، كان على أن أكون معهم لنبدأ درس اللغة العربية
لفصل خامسة رابع.. أبدأ بهم يومى الدراسى.

ما أتعس الشارع الذى يخلو من بهجة أولاد المدارس.

توقفت عيناى على البناية التى لم تصدر عنها أية
حركة.. صمت كامل وهدوء موحش ومرعب. إنها تقريبا
أجمل بناية فى حى البيرة، ليس فيها شرفة غير مزينة
بالورود من كل شكل ولون.. وتطل معها البنات الجميلات،
ضحى ونائلة وشيماء وسهى وإيمان وآيات ونهى. لم نسمع
أن بين سكان هذه البناية خلافات من أى نوع، وكم كنت أود
أن أسكن معهم حيث المدخل الواسع والسلالم الرخام والمودة
التى تجمع الكل: أين هم الآن سكانها؟ ماذا جرى لهم؟

كيف يتنفسون؟ كيف يشربون ويمارسون حياتهم وماذا يأكلون؟.. المشكلة في الأطفال.. قلبي على الأمهات.. لابد أن تموت بعضهن أو تجن.. أخرجوهن بملابس النوم. تخيلوا يا سكان العالم هذا المشهد البشع.. خمسون فردا لمدة يومين محشورين في شقة، ومن حولهم فوهات الرشاشات وتهديد الرصاص وأشباح الموت.

أتانا عند الظهر بالضبط صوت الشيخ صادق خافتا من جامع العين يؤذن للصلاة.. لم نر أحدا يتجه إلى المسجد.. كان هناك فقط الفراغ والهواء المسكون بالفزع والترقب وقطرات حميمية من المطر.. السماء تحاول أن تتعاطف معنا.

فجأة دوى انفجار هائل وتداعت البناية العالية.. تلك البناية التي جمعوا كل سكانها في شقة واحدة.. عرفت أن إحدى الدبابات أطلقت قذائفها بعد أن حشوا الدور الأول بالمتفجرات.. انهارت البناية وتداخلت أجزاءها، وتسابقت الجدران الحجرية في الهبوط، أسرعت الأسقف بثقلها تدفن نفسها وسط الركام والتراب.. تعالت سحب كثيرة من الغبار وذرات الجير والصراخ والفجيعة.

صورة بشعة من العدوان المجنون والتدمير فائق الغرابة، صنعته قرائح ملهمة لكارهي الحياة.

علمت بعد ذلك أني سقطت مغشيا عليَّ عندما بدأت أتذكر أهلنا في هذه البناية فردا فردا.. خامرني شعور أننا

دائما في انتظار كارثة.. تعودنا أن تلطمنا أمواج الدمار والبغي وتهدم بيوتنا النفوس المريضة التى تعربد فيها العقد، لكننا دائما نستشعر أننا لا زلنا فى انتظار كارثة أكبر تطوينا وتطوى العالم معنا، تطوينا لتنقذنا وتطوى العالم لأنه متواطئ.

غيوم فى السماء تسرع بالفرار يسوقها الذعر.. تساءلت وأنا أرقب الشارع الخالى إلا من الصراخ والخراب.

لماذا لاتوجد فى الوطن العربى كله من المحيط إلى الخليج فزّاعة للطير أو خيال مآتة؟ لماذا لاتصنع الصين للعرب تلك الفزاعات لعلها تدفع عنا بعض الصقور التى تنهش فى لحومنا وتشرب دماءنا.. فزاعة للطير تكفى..

١٩٩٨

ذقن الباشا

كان الباشا . . باشا

كانت الحديقة . . عروس الحدائق

وقبل أن يشرق الصباح ويحضن الوجود بالنور، ينهض الباشا من نومه ويغتسل، ثم يطمئن على هندامه فى المرآة. يطيل التحديق - بشىء من الاعتزاز - فى ذقنه كثيفة الشعر، وشاربه المبروم، ثم يتهادى إلى حديقته الغناء التى يستمد منها ألق الحياة.

بابتهاج يستنشق العبير الذى يتغلغل إلى أعمق كيانه. يواصل ملء رئتيه بالشهيق حتى تطول قامته وتعلو رأسه. مستمتعا بحلاوة الإحساس بالصحة، فالورود الباسمة والنباتات النضرة، والخضرة المتألقة والعصافير المغردة تشحن بطارية روحه بجمال لاحدود له.

يمتلىء قلبه بالرضا، ويقبع بين ضلوعه سعيدا بتأملاته فى الأفق الواعد، والسماء الحانية والأشجار الباسقة والزهور المتعانقة ورحلات النحل ورشفاته وقبلاته.. أثناء ذلك لاتكف أصابعه عن تمشيط شعر ذقنه الرمادى الكثيف.

فى يوم من الايام شكا البستانى للباشا من ظهور الفئران بالليل وإلحاقها الضرر بالنباتات الأرضية والوليدة، تأكل مايروق لها وتعبث بالباقى. اقترح الباشا أن يضع لها السم، أبدى البستانى انزعاجه من الفكرة، واقترح بدلا من ذلك نصب المصائد والشراك.

وافق الباشا.. أخذت مواقعها المصائد التى حضرت على عجل، ودس البستانى فى أعماقها شرائح الطماطم والخيار والجبن، وسرعان مع منتصف الليل أن علا دوى طرق أبوابها الصفيح قابضة على عدد من الفئران التى فوجئت بالكمائن الغادرة. ومع الصباح كانت الحصيلة مصدر فرح عارم.

ابتسم الباشا للفكرة الذكية، كان لابد من حل لهجوم الفئران البشع.. كم يضايقه أن يعكر صفو يومه أى غيم!.. لقد أصبح فى مرحلة من السن يمكن أن يكدره فيها شىء تافه.

بعد أيام تراجع محصول المصائد، وتراجع معه فرح الباشا.. مع كل فجر يسارع البستانى إلى فخاخه المنصوبة فى معظم أركان الحديقة، فيصدمه المشهد، إذ يجد أبواب أغلبها على مصاريعها مفتوحة، دون أى صيد سمين أو

هـزيل.. والأغـرب أنه يـجـد بـعض الـطـعـم مـأكـول.. كـيف دخلت الفئران المصائد فأكلت وتثاءبت ثم خرجت؟

ظلت المصائد عاجزة عن الإمساك بفأر لعدة أسابيع مهما وضع البستانى من المشهيات، وغيَّر أوضاع المصائد ومواضعها، فقد خبرتها الفئران، وأدركت كمون النهايات فيها وماعادت تخدعها الحيل.

انزعج الباشا فقد تهدد مرتعه الجميل، والبستانى أكثر منه انزعاجا، فهو يمكن أن يحتمل وعكة تصيب زوجته أو أحدا من أولاده، لكنه لايقبل أن يرى الباشا تعسا.. وقدر بسيط من الأسى يصيب الباشا يصيبه بأضعافه.. لكم سار وراءه كما تعود وأيقن مدى غرامه بالحديقة التي يتأكد بنفسه في سلامة كل سكانها!. يمر على الزهور جميعها، ويحدق في أضعفها. تمتد نظراته الحنون إلى الياسمين والريحان والسوسن والفل والقرنفل وتمر الحنة فتربت عليها وتلقى عليها تحية الصباح، ثم يمر على الصبار والأبصال وسكان الأحواض الصغيرة والمتسلقات كاللبلاب والفضية وست الحسن، وتتلهف روحه على طلعة النبت الجديد البازغ من عمق الطين ومحبته، ويرجوها أن تنمو بسرعة لتشرح صدره وتبقيه حيا.

الباشا الضخم الصلب دائما، والقاسى أحيانا، بل الظالم والباطش حتى مع أولاده، ينهار أمام زهرة رقيقة دهستها قدم غاشمة، والبستانى لايكاد يزور بيته فهو حارس وخادم وراعى الحديقة، والثلاثة فى صحبة دائمة. الباشا والحديقة والبستانى..

هاهى الفئران تهدد المثلث، لذلك فكر وفكر، ثم التقط الحل الذى جاء سهلا ولطيفا.. قطة واحدة تكفى لقتل الفئران أو طردها، وتنتهى المأساة التى تعصر قلب الباشا.

مع أن الباشا لايحب القطط ويفضل الكلاب، والكلاب ليس هذا اختصاصها.. فقد وافق قائلا:

- اذهب فورا ولاتعد إلا بها

القطة المشمشية التى عثر عليها البستانى، كبيرة الحجم، لكنها بدت عجوزا وهى تمشى بثقل فى الحديقة، ثم انتبذت ركنا مشمسا تمددت فيه باعتزاز، ومضت تغمض عينا وتفتح أخرى، ورمقت الباشا بتأفف فبادلها النظرات ذاتها، وأخيرا مط شفتيه ومضى عازما على الانتظار، متذكرا المثل الذى كثيرا ما كان جده يقوله فى مثل هذه الحالة:

«إن شالله على الطلق المشوم غلام»

عندما حل المساء دبت الحياة فى القطة. خرجت عن صمتها وكسلها.. تحركت وتشممت وأنصتت وحدست، ثم ادركت ان بالحديقة طعامًا شهيًا، وأحبابها حاضرون فى جحور كثيرة، وشرعت تنطلق وراء أى إشارة، وقد بدا واضحا تمرسها.

ما إن يظهر ذيل حتى تكون فوقه، ولو بدا على الأضواء ظل لفأر طارت إليه، وبدأت الثمار تتساقط منذ أول يوم، وطمأن البستانى الباشا على الأداء المبشر، ووعده أن يعود للحديقة بهاؤها خلال أيام.

بعد عدة ليال هب الباشا من نومه فزعا، يرتعد جسده فرقا ورعبا لقد جاءته الفئران فى حلم. صعدت إلى فراشه وتسلقت جسده. دخل عدد منها فى سروال بيجامته الحريرية، وتسلل ثلاثة إلى فتحة صدره، وعبثوا بشعره الخشن الذى حسبوه عشبا، وقبله واحد فى شفتيه ولعقهما ونافسه آخر، وتمشى الباقون على وجهه، فانتفض مذعورا. قرر أن ينزل فورا وفى عز الليل ودون ملابس رسمية إلى الحديقة ليتأكد بنفسه أنها خالية تماما من الحيوان الشيطانى الضئيل.

لا أثر على الأرض من أحلامه الشائرة.. لا بأس أن يبقى دقائق. جلس القرفصاء وأنصت.

كان الصمت سائدا فى البداية، ثم تناهت إليه الحركة السريعة الصاخبة. ثمة معركة تدور رحاها بين أشجار الجزورين والجهنمية بحذاء السور. لمح القطة تقفز هنا وهناك، وصراخ الفئران يتعالى حادا وقميئا.. ظل واقفا يترقب. فوجئ بفأر ينطلق كرصاصة من تحت قدميه. القطة فى أعقابه تطارده وتكاد تلحقه. فى إحدى قفزاتها خبطت رأس الباشا، فانطرح أرضا. عادت تقفز فى إثر العفريت الصغير فداست ذقن الباشا وغمرتها بالوحل.. جن الباشا ودون أى تفكير قرر قتل القطة. لن يسمح لها بالبقاء فى حديقته أبدا مهما كانت ذات نفع.

أسرع بالصعود التقط البندقية. خامره شعور بالرغبة فى التحقق من قدرته على التصويب، وأنه لايزال قادرا على

إنزال الأذى الرادع بمن يفكر أن يمسه، وخاصة ذقنه.

وقف وسط الحديقة متأهبا ومحتشدا بعد أن أشعل المزيد من الأضواء. لمح القطة تتسلل فى حذر شديد قبل أن تهجم هجمتها القاتلة على غريمها الذى أنهكها كرا وفرا.. عندئذ أطلق رصاصته التى حملت خلاصة غضبه وتركيزه، فجندلت القطة التى دارت دورتين فى الفضاء المحموم والمرتجف ثم ارتمت جثة هامدة.

تأكد الباشا أن القطة المشمشية الطائشة قد فقدت علاقتها بالحياة تماما ولن تقوم لها قائمة، فأمسك بذقنه، كأنه يقول لها:

- أنت بخير ولن يمسك أحد بسوء

وقال لنفسه:

- من زمن لم أطلق رصاصة.. وعندما أطلقت أصبت فى الصميم.

فجأة، وبينما كان الباشا يستمتع بزهو عميق. انشقت الأرض عن مئات الفئران التى التفت حوله متهللة تهتف باسمه. هز الباشا رأسه وهو مغمور فى المجد وعاد يمشط ذقنه ويخلصها من كتل الوحل المجفف.

١٩٩٧

الدخول إلى اللوحة

ضباب ودخان.. سماء داكنة وبعيدة
أفق غامض، يهيل صمتا زئبقيا متواطئا
أشجار تحترق، يصاعد من بقاياها أنين مكتوم
الأرض مفروشة بالركام والحطام والألم

أنقاض وأطلال كثيرة تتجمع فى أكوام وراء أكوام، تملأ الفراغ والمدى الخالى الذى تصفعه بين الحين والحين ومضات كهربية لايدرى أحد مصدرها.

دمدمة واثقة.. خافتة ومتواصلة.. تتردد أصداؤها فى أطراف اللوحة. على سفوح الأنقاض جثث لاتزال دافئة.. تتمتم بكلمات الوحشة والأسى يسيل منها دم وغضب، وفى عيونها المحدقة نظرات حبر معتق وكمد.

على الجانب الأيسر من الأنقاض كانت هناك طفلة فاغرة الفم لاتزال تحتفظ بصرختها المدوية، بينما لعبتها في يديها، رفضت أن تفارقها بعد أن فارقتها الحياة، ولم تعد صالحة للعب ولا للابتسام ونسيت تماما تلك الأغنية التى كانت تغنيها لها، ولم تلح فى طلبها كى تسمع حكاية جديدة.

النهار يتوارى شاعرا بالخجل، يتراجع ضوءه الرمادى ويتنحى متوجسا من أن يتورط نوره فى كشف ماجرى.

وردة حمراء مائلة، دب فى ساقها الاصفرار، والطفل الذى كان فى الصباح يتقافز ماضيا باشتياق إلى المدرسة، مطروحا الآن على ظهره، نصفه الذى بداخل السروال القصير على الرصيف، وبعض بدنه المنتفض فى القميص الذى يشبه الكوفية بمربعات سوداء تبكى على صدر مربعات بيضاء، يستقر على الأرض ووجهه إلى السماء.. بسيطا وراضيا، كعهده حين ينام موشحا بابتسامة فهل تراه كان يعلم أن بطنه مبقور وأحشاءه إلى جانبه ملفوفة بخلاصه؟

تلامس حافة الرصيف المهشم، تبدو كأنها تتحرك فى اتجاهه، بينما براءته مرتمية كقطعة معدنية تلمع فى صفاء تحت ضوء النهار المرتبك.

كان قد عاد من المدرسة وراعه مشهد البيت الجميل وقد انهدم فوق أسرته بكاملها.. هكذا أبلغته الجارة بصوتها المشروخ وعيونها المدماة ورأسها الذى تعلوه حفنات من

تراب.. سقطت منه حقيبته.. وقف لحظات مدهوشا ثم انحنى إلى الأرض، والتقط حجرا، وقبل أن يلقيه بكل ما يملك من قوة وسخط على الفجيعة ليسقط على هؤلاء الذين يقفون هناك في غطرسة ووقاحة.. أحس بالطلقة الثقيلة تفرغ جوفه مما به، فترنح وتفكك دون أن يقدر على منع نفسه من التبعثر على الأرض وكان ثمة شعور غريب وضبابى كأنه الحلم ببقايا الوعى، يوميء له بأن العالم هو الذى يترنح ويتهاوى.. يتهاوى عميقا فى آخر قيعان الأرض.

ريح تتسلل الى المكان وتعبث بالجثث وتتحسس الأنقاض.. تصعد إلى مبنى قديم فوقه علم يدمدم ويتألم، تضطرب أعماقه وتمور كقدر يغلى.. الألوان الأربعة، تتحرك على صفحته.. تغادر مواقعها، الأسود حمل الأبيض، الأبيض حمل الأخضر، وركب الأحمر فوق الألوان التى اغتسلت به وانطلق اللون الأحمر يركض نحو الأفق وفوق الأطلال، يلتف حول الشجر المتفحم ويسيل بقوة، كنهر يتحدر من فوق جبل.. توقف النهر أخيرا عند الطفل وساد سكون.. وكانت فى نهاية الممر الطويل الشاحب تميل شجرة أرز على شجرة زيتون.

صعدت الريح إلى العلم المهموم.. دقت أبوابه.. اهتز وانفعل.. بسط ذراعه وتلوى.. تحرك.. لوّح فى استنفار ارتفع الصارى.. تلقت الريح العلم بين أحضانها.. هزته

بشدة.. أخذ يرفرف ويرفرف.. عادت إليه ألوانه الأربعة.. أخذت مواقعها وعلى رأسها الأحمر المدبب.. أخذ يرفرف ويرفرف.. مضت الريح إلى علم ثان وثالث.

قررت أن أدخل اللوحة.. أرفع علما صغيرا في يدى وأنتصب وسط الحطام.. تبعنى آخرون.. اجتازوا عتبات اللوحة.. ألف.. ألفان.. ثلاثة.. أين كانوا؟ رفعوا أعلاما واصطفوا صفوفا كبيرة.. علت دمدمة القلوب ورفرفت الأعلام.. شرع الدخان في الانحسار وكذلك الضباب.. بدا الأفق أقل غموضا وإن كانت به مسحة برتقالية.

تسلل من بين الأنقاض ثعبان أسود كبير وقمئ ومقزز مضى مسرعا خارج اللوحة.. كان جارى في الصف أسرع منى في اللحاق به قطع ذيله وعاد إلينا وعلى شفتيه شبح ابتسامة.

١٩٩٧

من ينقذ القمر؟

عندما حل المساء كان القمر مستعدا ومتألقا، ركب الأفق وصعد فى خفة ونشاط إلى قلب السماء.. تغلغل المساء ومضى القمر يجتهد كى يضىء للناس أكثر.. يتسلل إليهم فى الطرقات الضيقة ويدخل عليهم خلال الأبواب والنوافذ. يصل إلى الشقوق.. إلى المقابر.. ينشر ضوءه الفضى على الأسطح وعلى الغيطان.. يتقافز النور فوق الشجر ويتساقط نتفًا على الأرض.

الدنيا كلها تسبح فى الجمال الوديع وملمس رائع من السحر والهمس الناعم، كل شىء فيه يغرى بالقيام والسهر، باكتشاف عالم بعيد من النفس والحياة.. سيمفونية أسطورية تتردد بين أركان الكون فيسرى الحب والجلال، بينما تنام

الحياة يقظى على حد الليل السكان منتشية بالرقة والعذوبة.

هرب.. هرب المساء وتمدد فى العظام والأعصاب وركب الأجفان وضغط.. غاص فى لحم البشر والحيوان.. تسرب إلى كل حى.. فتحللت الأجساد وارتخت واستسلمت للنوم الثقيل.

ظل القمر يصعد وينادى بلغته النورانية هامسا.. ينادى أحباب الجمال والفن.. ينادى المتعبين المشتاقين لنجوى الأرواح الظمأى.. الذين هدهم جهد العمل تحت الشمس.

خلع القمر عن قلبه أزهاره الفضية الشفيفة فرشقها فى كل الأركان لتزدهر بالشوق إلى حياة جديدة.. لكن أحدا لم يظهر.. الكل نام مجهدا. حطمه نهار شرس استولى على كل شىء.

تساءل القمر عن العشاق.. عن أصحاب الأسرار.

- ها هى الفرصة.. اطلعوا.. وتلفعوا بعباءتى وابدأوا رحلتكم السريعة.. مضى الوقت، والقمر يطوف بحثا عن الخلق ليهديهم أبدع ما طلع على العالمين من نور بهى مغزول بالبنفسج والياسمين واللبن والشعر ووجوه النساء وقلوب الملائكة الأطهار.

صعبت عليه نفسه وهو يفكر فيهم ويسعى بينهم مطاردا والليل فى كل ركن، ورغم ذلك ظل الأمل يخامره فى أن فتى وفتاة سينفرج عنهما الآن باب أو نافذة يتسللان من بين

العيون والجدران التى تكبل قلبيهما الصغيرين.. سيخرجان الآن إليه، ويطيران إلى الحب فى ظل عباءته محمولين على أجنحته الربانية..

النور يتقلب على كل شىء ويتألق.. أين المحبون؟

أين أصحاب الأسرار المقدسة؟.. إذا صارت الروح قادرة اقتلعت من أعماقها أقدام المساء الراسخة.

اجتازوا دربكم المشنوق إلى الطفولة والبراح.

تخلصوا من طفيلية الأشياء وأغصانها الملتفة فى دائرة لا نهائية وانطلقوا إلى مدينة الأشواق والزقزقة.

يراودنى الآن شعور أكيد أن فتى وفتاة سيطلعان كل منهما من مكان بعيد عن الآخر.

سأسلمه فرسا مجنحة وأسلمها فرسة مجنحة.. يطيران إلى حيث لاعين ولاجدران.. وفى البراح تترعرع النظرات الملهمة واللمسات الشجية تهمس فى أذان القلب كى يسمع وشوشة الحب الوليد وتقلبه فى فيضان الروح.

لعل الاشتهاء الجميل يدفعه نحوها.. ولعلها

لعل قلبه الآن يضبط الدقات المناسبة فلا يستطيع..

لعل لسانه الآن يتأهب بكلمات تليق، والشفاه تتمتم بالحروف المتلهفة

صمت القمر فجأة وقد أوشك أن يهوى فى قبضة اليأس. وسرعان ما ابتسم.. ها هو قبل الفجر باب يفتح.. رأس يطل

ويتلفت يمينا ويسارا.. ثم يخرج صاحبه.. شاب يتألق بالعافية.. يسرع القمر إليه ويستقبله، يضيء وجهه والطريق تحت قدميه.. يمضي أمامه ووراءه.. يسبق عينيه إلى كل مكان.

يتحسس الشاب صدره مطمئنا على قلبه المشبوب.. الشاب في سن الحب المتفجر.. يتنهد الشاب ويتنهد القمر.. يتمنى أن يوفق في مهمته: أسرع قليلا.. ما هذه الخطوات المتوجسة؟.. لاتخف.. لن أتركك أبدا.. هذا منتهى نشوتي. وعندما تلتقيان ويشتبك القلب بالقلب والروح بالروح ويتلاشى الجسد سأختفي وأترك لكما ساحة الأسرار.. ويكفيني أن ليلتي لم تذهب سدى.. على يديك أصبح لهامعنى.. هيا اسرع..

كلما اقترب الشاب من أطراف المدينة، فرح القمر باللقاء الوشيك.. سوف ينهل الاثنان من آبار العسل، وعليه أن يضيء لهما السبيل، ومهم جدا أن يمنع الشمس من الطلوع وقد أوشكت.

- لابد أن أساعدهما كي ينسجا عالمهما الخاص بالأحلام والحب ويذوبًا الضوء الإلهي في جسد شفاف ونبيل.

تمهل الشاب، ثم دار حول نفسه دورة، واطمأن أن أحدا لايراه أو يتعقبه.. توقف خلف إحدى الأشجار وعيناه تحدقان في أحد البيوت.. مرت الدقائق الثقيلة في الانتظار

الصعب.. الشاب ينتظر قلقا ويتنهد.. أدرك القمر لوعة الفتى ولهفته.

لامفر يا ولدى من الصبر وكل شي له مدى. ليس الأمر زرا نضغط عليه فيخرج لك الحبيب ويرتمى على صدرك ليروى ظمأك.

أخيرا لاح ضوء خافت عبر خصاص نافذة البيت المحبوب.. ها هى تتأهب للخروج.

لمح القمر سحابة كبيرة قادمة من بعيد، ضاق صدره. لكنه تماسك، وتمنى أن تخرج البنت إلى حبيبها المعذب.. قبل الغمامة فتح الباب.. تهلل القمر.. خرج شخص فى عباءة. تحمس الشاب واستعد.. تراجع قليلا ليخفى وجهه.. تقدمت العباءة الملتفة جيدا حتى دنت من الشجرة.. كاد القمر ينهار فرحا.. توقفت الحبيبة فجأة، وأشعلت.. سيجارة.. بهت القمر.

رجل.. رجل!

وفى مدة لاتتجاوز الواحد على ألف من الثانية، لحظة هى أصغر وأدق ذرات الزمن حتى الآن، طار الشاب وانقض بسكين ومض كعين شيطان، وأغمده فى البدن المنتفض بالفزع المفاجئ قبل أن ينطق بحرف.

انشق صدر القمر وتناثر الدم الملتهب على وجهه ورسم أشكالا مرعبة.. صعق وتجمد. ثم لمح الغمامة فأسرع يختبئ

فيها وكفاه على عينيه.. كان فى شبه غيبوبة فلم يدرك أن قلبه يسَّاقط على الأرض ويتهشم نتفا صغيرة من الظلام التعس والمقت.

١٩٩٠

قصة مائلة

مشيت قليلا فى الشوارع المعوجة
كان المشهد غريبا
العمارات العالية مائلة، والبيوت محنية
تطلعت من جديد
المدينة كلها مختلفة
أدرت عجلة الأفكار
محاولا معرفة السر
تساقطت أفكارى وظنونى
كانت جميعا مائلة
لم أجد منها ما يصلح سببا
الأرض أيضا مائلة

لكن ميل البنايات مختلف
هل تراها المياه الجوفية.. علا منسوبها؟!
ولو علا.. ماجرى الذى أراه
هل حديد التسليح أصابه الصدأ؟
ربما حدث هذا
لكن الانهيار هو النتيجة المنطقية
أو ربما المنطق هو المائل
هل تكون رياح عاصفة هى السبب؟
لم يحدث من قبل ببلادنا مثل ذلك
ربما صاعقة..
الأقرب أنى فى حلم
لكننى أضرب الأرض ووجهى اليقظان
فى الشارع أمشى ويحيينى الناس المائلون
غير مستبعد أن تنقلب سبل التفكير
ليس شرطا أن تكون النتائج بنتا شرعية
لمقدمات موضع شك.. جربت الحساب
لم تعد الأربعة، حاصل ضربها فى واحد
ولا الاثنان حاصل جمع الواحدين
أين الحق فى الحقيقة؟
ربما العدل غيّر من أدواته..
فتخلص من الميزان المشهور

واستخدم بلطة أو سكينا أو دانة
مؤكد أنها السياسة
تنفذ إلى كل شيء
من الدين . إلى الحرب . إلى الفقر
ومن العملة والموضة إلى السلاح والمال والحب
ومن الطعام والمخدرات إلى الجنس والطب
فلماذا لاتتدخل في شكل العمارات ؟ !
عمارة على شكل الستة من الأعداد
وثانية تشبه الاثنين
وثالثة تشبه الأربعة
وخامسة تشبه الثمانية
طرفها الذى انحنى كثيرا تساوى مع الطرف الأول
ولمس الأرض
لا . . ليست العمارات وحدها
إنها السماء أيضا والبحار
لكن لا شيء يسقط
فالماء لايغرق الأرض
وها هي الأشجار مائلة وثمارها تطير
خلف العصافير المفزعة
تمضي في مسار مائل
السيارات أيضا والدراجات . . الأسوار والجسور

الأبراج والحدائق والمقابر والمعاقل
الكل مائل.. المصانع والمسارح والأفلام والكلام
الضباط والجنود وأبنية السلطة
الملاعب والجحور وإشارات المرور
لكن النقود أيضا مائلة
الظلال والقلوب والأرواح.. العلاقات والنظرات
القبلات واللوحات والأغنيات والحيوانات
وكانت أمامى تميل كل الآمال والأحلام
.. الهواء والسحاب والأحضان والاوهام
ولحت العبقريات والمخترعات أيضا مائلة
مثل النبوغ والأفراح والبرد والحر
الحب والمال والجمال والسهر
الكل مال
فكرت كثيرا بطريقة مائلة تلائم المقام
رأيت أن الناس فى انسجام
كل شىء متسق ومتناغم
وأنا النشاذ
ملت فورا، وازددت ميلا
فاعتدل العالم.. اعتدل

١٩٩٧

صدر للمؤلف

*** أولا : المجموعات القصصية**

١- عقدة النساء ١٩٧٨ المؤلف

٢- كلام الليل ١٩٧٩ المؤلف

٣- العجز ١٩٨٣ دار الهلال

٤- عسل الشمس ١٩٩٠ هيئة الكتاب

٥- شدو البلابل والكبرياء ١٩٩٥ مختارات فصول

٦- الغندورة ١٩٩٦ قصور الثقافة

٧- زهرة البستان ١٩٩٩ قصور الثقافة

٨- قناديل ٢٠٠٣ كتاب الجمهورية

٩- رائحة الوداع ٢٠٠٨ قصور الثقافة

١٠- سوق الجمعة ٢٠٠٨ كتاب اليوم

١١- كلب بنى غامق ٢٠٠٧ قصور الثقافة (مترجم)

*** ثانيا : الروايات**

١- أشجان ١٩٨٠ العربية للنشر

٢- الناب الأزرق ١٩٨١ المؤلف ط٢ نادى القصة

٣- السقف ١٩٨٤ هيئة الكتاب ط٢ نادى القصة

٤- عشق الأخرس ١٩٨٦ أخبار اليوم ط٢ مكتبة الأسرة

٥- شفيقة وسرها الباتع ١٩٨٦ دار الغد العربى ط٢ مركز الحضارة.

٦- موسم العنف الجميل ١٩٨٧ هيئة الكتاب

٧- عصر واوا ١٩٩٣ دار الهلال ط٢ العربية للعلوم وناشرون

٨- بذور الغواية ١٩٩٤ هيئة الكتاب

٩- روح محبات ١٩٩٧ المركز العربى المصرى ط٢ مكتبة الأسرة ط٣ المصرية اللبنانية.
١٠- حكمة العائلة المجنونة ٢٠٠٠ دار الهلال
١١- الحمامة البرية ٢٠٠٢ مركز الحضارة العربية
١٢- رتق الشراع ٢٠٠٣ قصور الثقافة
١٣- قبلة الحياة ٢٠٠٤ دار القاصد ط٢ هيئة الكتاب (الجوائز).
١٤- أبقى الباب مفتوحا ٢٠٠٥ دار الهلال
١٥- كسبان حتة ٢٠٠٦ الدار المصرية اللبنانية
١٦- المفتون ٢٠٠٨ الهلال
١٧- نساء وألغام ٢٠١٠ الهلال

*** ثالثا: الدراسات**

١- كيف تختار زوجتك؟ ١٩٨٦ دار الغد العربى
٢- شيخ النقاد محمد مندور ١٩٨٧ دار الغد العربى
٣- نجيب محفوظ كاتب العربية الأول ١٩٨٨ قصور الثقافة
٤- إحسان عبدالقدوس عاشق الحرية ١٩٩٠ قصور الثقافة ط٢ المجلس الأعلى للثقافة
٥- أدب الرحلة فى التراث العربى ١٩٩٥ قصور الثقافة ط٢ المصرية اللبنانية
٦- رعاية المواهب ١٩٩٨ قصور الثقافة
٧- صناعة التقدم فى مصر ٢٠٠٠ مكتبة الأسرة
٨- فن كتابة القصة ٢٠٠٣ قصور الثقافة ط٢ المصرية اللبنانية
٩- ثقافة المصريين ٢٠٠٦ أخبار اليوم
١٠- صلاح جاهين.. شاعر الجماهير المجلس الأعلى للشباب ٢٠١٠

*** رابعا: قصص وروايات الأطفال**

١- مغامرة فى الهرم
٢- مدينة الدخان
٣- الولد الذهبى
٤- الساحرة والملك

المحتوى

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة

أصوات أدبية

414- لماذا تغرد العصافير فوق القبور؟! .... عاطف فتحى

415- رحيق الهباء .... د.عيد صالح

416- منامة الشيخ .... ممدوح عبد الستار

417- الوجوه والمرايا .... أحمد سويلم

418- أكتب لأحيّيك .... محمد سليمان

419- سيرة الدنچوان .... حمدى عليّ الدين

420- ثقب صغير فى النافذة المفتوحة .... أشرف عبد الفتاح

421- آخر مواسم الحصاد .... حامد أنور

422- رُقيَّة .... مأمون الحجاجى

423- تلك السيدة .... صلاح عطية

424- الدبلوماسى يخلع البابيون .... وجيه القاضى

425- أقشّر الموسيقا .... بشير رفعت

426- فى الجزء الذى أنساه.. من الحلم .... سحر سامى

قبل أن أنام على من جديد تذكر خيانتك
وجودك.. وأن أتذكر جيدًا وبعمق قسوتك
الأسطورية التي دفعتك لهجر بيت جميل..
رعيته وحدي بعمري وأعصابي ووقتي ومالي،
اكتفيت منك بكلمات طيبة وحضن دافئ.. لم
أكن أطلب غير هذا.. بل لم أطلب شيئا.. أعترف
أن لمساتك الودودة كانت تصلني في الوقت
المناسب، واعتبرتها - لسذاجتي - قمة المشاركة
والعطاء، فهل كنت تكذب؟ ما أبشع أن يأخذ
الكذب هذه الصورة! ما أفظع أن يتخذ العربيد
الفاسق إهاب القديس.

تصميم الغلاف .. د. خالد سرور

الهيئة العامة لقصور الثقافة

www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahalgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com

الثمن : ثلاثة جنيهات